الفصل الثاني
أدب ابن الزيات

عاش محمد بن عبد الملك الزيات في عصر الازدهار الثقافي والأدبي والعلمي، وعاش حياة عريضة، وشارك في الحياة الأدبية مشاركة واسعة، فكانت له صلات كبيرة بكتاب العصر وشعرائه وخلفائه وأعيانه، ومارس حياة اللهو والترف وحضر مجالس الأدباء والشعراء، كما كان له أثر كبير في الحياة السياسية، إذ كان موظفاً في الديوان، ثم وزيراً ذا أثر وخطر، فقد وزر للمعتصم ثم للواثق ولمدة قصيرة للمتوكل، وقد ذاق حلاوة الحياة بكل ما فيها من يسر وترف وغنى، وذاق مرارة النكبة وبؤس العذاب الأليم الذي أودى بحياته، وقد كان له أثره في الكتابة والشعر.

وأدبه صورة واضحة حية لحياته وشخصيته، فقد مدح أناساً ومدحه أناسٌ، وهجا أناساً وهجاه آخرون، وله مداعبات ومراسلات مع أصدقائه وإخوانه، وله نصيب كبير أيضاً من دسائس العصر وأحابيله، فكان في ذلك ظالماً ومظلوماً، جلاداً ومجلوداً، ومهما يكن من حكم الحاكمين على ابن الزيات، فإن الرجل قد خلدته آثاره، واستطاع أن يترك بصماته في أدب العصر وسياسته وأحداثه ورجاله.

لقد أعد ابن الزيات نفسه ليكون في حاشية السلطان كاتباً، وطمح لأنْ يكون وزيراً، فترك مهنة آبائه وأجداده في تجارة الزيت التي فيها الثراء والغنى، وسار في طريق العلم والأدب، فأهَّل نفسه لذلك، وكان له استعداد وعلم وأدب وشاعرية، فأما استعداده، فقد رزق ذكاءً متوقداً وعزيمة صلبة أهلته لأن يصل إلى مبتغاه من الطريق الطبيعي الذي يسلكه المؤهلون بمواهبهم وعلمهم وحسن إدارتهم، لقد استكمل ابن الزيات علمه وتمكن من أداته الأدبية قبل أن يلج باب الخلافة، فقد عرف بنبوغه وتمكنه في النحو واللغة والأدب، وقد مَرَّ بنا شهادة أبي عثمان المازني (ت٢٤٩هـ/٨٦٣ م) من أن رأيه في المسائل التي يختلف فيها طلاب العلم هو الرأي الفصل، وجوابه هو الجواب السديد، فكان إذا اختلف جلساء المازني وطلابه في أمر من أمور النحو يقول المازني: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب (أي ابن الزيات) وأسألوه

واعرفوا جوابه، فيفعلون، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذي يراه المازني[١]، وكان سبب دخول ابن الزيات ديوان الخليفة وتسلمه الكتابة ثم الوزارة هو تمكنه من العلم ومعرفته اللغوية الواسعة، في القصة التي مرت والتي عرفت بقصة الكلأ، حيث سأل المعتصم وزيره عن معنى الكلأ الذي ورد في أحد كتب عماله، فلم يعرفه الوزير، فنودي على ابن الزيات فأجاب إجابة وافية وفصَّل في أطوار الكلأ وأنواعه وأسمائه في كل حالاته[٢]، وكذلك معرفته بالرجال وسبب تسميتهم بألقاب معينة، ومنها سؤال المعتصم لجلسائه عن سبب تسمية طاهر بن الحسين بذي اليمينين، فلم يعرفوا ذلك، فنودي على ابن الزيات، فقال: إنه ذو الاستحقاقين، استحقاق ما لجده من رزق في مال الدولة، واستحقاق ما له في دولة المأمون[٣]. وإذا تركنا أماديح أبي تمام والبحتري في وصف قلمه وبيانه وشاعريته، على أنهما شاعرا مديح، والشاعر كثيراً ما يبالغ فيما يقول، فإننا نحتكم إلى رأي المؤرخين والأدباء، فالمرزباني يقول: «إن محمد بن عبد الملك الزيات كان أديباً شاعراً»[٤]، والخطيب البغدادي يثني عليه بقوله: «كان أديباً فاضلاً عالماً بالنحو واللغة»[٥]، وقد ذكره دِعْبِل الخزاعي في طبقات الشعراء (نقلاً عن تاريخ بغداد السابق)، وأشاد به ابن خلكان فقال عنه: «قد سَمَت بمحمد بن عبد الملك الزيات همتُه... وكان من أهل الأدب الظاهر والفضل الباهر، أديباً فاضلاً بليغاً عالماً بالنحو واللغة»[٦]، ولم ينكر المسعودي الذي يختلف معه في المذهب، فقد كان المسعودي شيعياً، وابن الزيات معتزلياً جهمياً، ومع ذلك فقد ذكره بأنه: «كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً»[٧]، أما أبو الفرج الأصفهاني، فيرى في ابن الزيات: «شاعراً مجيداً لا يُقاس به أحد من الكُتَّاب، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك، فإن

---

(١) تاريخ بغداد ٣ / ١٤٤.
(٢) ابن خلكان ٤ / ١٨٦ الوافي ٤ / ٣٢، الخزانة ١ / ٤٤٦.
(٣) كرد علي ص ٢٨٢، الهجرسي ص١٠١. وانظر الأعلام للزركلي ٣ / ٢٢١.
(٤) معجم الشعراء ص٣٦٥.
(٥) تاريخ بغداد ٣ / ١٤٤.
(٦) وفيات الأعيان ٥ / ٩٤.
(٧) مروج الذهب ٥ / ٨.

إبراهيم مُقِلٌ وصاحب قِصار ومقطَّعات، وكان محمد شاعراً يطيل فيجيد، ويأتي بالقصار فيجيد، وكان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب»[1]، ووصفه البغدادي بأنه: «من أهل الأدب فاضلاً عالماً بالنحو واللغة»، وأوردقصة المازني[2]، وأفاض إبراهيم بن المدبر الوزير في الثناء على ابن الزيات، في أدبه وشخصيته وخصاله، فقال: «من ألطف الناس ذهناً، وأرقّهم طبعاً، وأصدقهم حسّاً، وأرشقهم قلماً، وأملحهم إشارة، إذا قال أصاب، وإذا كتب أبلغ، وإذا شعر أحسن، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة»[3]، أما صديقه الجاحظ، فقد جعل علم الشعر عند أدباء الكُتَّاب، والرواية طويلة، تقول: «طلبت علم الشعر عند الأصمعي، فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكُتَّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات»[4]، وقد اعتمد ابن رشيق على قول الجاحظ هذا حين أراد أن يُقيم ديواناً مفرداً للشعراء الكُتَّاب، ولعلنا لم ننسَ الرواية التي تحدثت عن رضا الواثق، وكان غاضباً على ابن الزيات وقد قرر قتله، فلما طلب إلى الكُتَّاب جميعاً أن يكتبوا بين يديه عهداً إلى الأمصار بتوليته الخلافة، فلم يُرْضِه ما كَتَبَ كُتَّابُهُ، فدعا بابن الزيات فكتب بين يديه ما ارتضاه وأعجبه، فغفر له وقرَّبه وقلَّده الوزارة وقال لحاجبه قولته المشهورة: «أَدْخِل مَنْ المُلْكُ مضطرٌ إليه» وهو محمد بن عبد الملك الزيات[5]، ثم قال له الواثق: «والله ما أبقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك، وسأكفّر عن يميني، فإني أجد من المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضا»[6].

وكان الواثق يحتفظ برقعة فيها شعر ابن الزيات، ويعجب لما فيها من أدب، فقد

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٥٢.
(٢) خزانة الأدب ١ / ٤٤٦.
(٣) أمراء البيان ص ٢٨٤.
(٤) العمدة ٢ / ٧٣٦.
(٥) أعتاب الكتاب ص ١٣٥.
(٦) الفخري ص ٢٣٣.

ساق الأصفهاني رو ية عن محمد بن الفضل بن الأسود الكاتب، قال حدثني ابن قريش ابن أنس عن أبيه قال: «دخلت على الواثق، فقال لي: يا أبا قريش، أخرج رقعة من تحت المصلى، فمددت يدي فأخرجت الرقعة، وقرأتها، وقلت: يا أمير المؤمنين، رقعة حسنة، أولها تشوق، وأوسطها استعتاب، وآخرها استبطاء، وإذا في آخر الرقعة:

إنْ يكنْ حبلُكَ من حبلي وهَى فإلى شوقي يكونُ المنتهَى

لم يذكِّرْنيكَ خَطبٌ حادثٌ إنما يذكر مَن كان سها

وكانت الرقعة من محمد بن عبد الملك الزيات، فقال الواثق: هذا هو ابن الزيات الذي يلومني الناس في حبه»[1]، ولهذا الإعجاب بابن الزيات وحبه، جعل الواثقُ الناسَ يقومون له إذا مَرَّ، إجلالاً له وتعظيماً لمكانته، وقد أهَّلَتْهُ هذه المكانة أن يعقد للولاة في دار الخلافة، ولم يسبقه أحد من الوزراء أن عقد لوالٍ في دار الخلافة قبل الوزير ابن الزيات، فقد عقد لإسحاق بن إبراهيم أبي خمبصة، مولى بني قشير من أهل أضاخ، على اليمامة والبحرين وطريق مكة مما يلي البصرة، في دار الخلافة[2].

هذه نظرة الأدباء والعلماء والمؤرخين والخلفاء لأدب ابن الزيات، ولا شك أن لابن الزيات ذوقاً رفيعاً وبصراً بالشعر ونقده، ودليل ذلك ما رواه ابن خلكان من أن أبا حفص الكرماني كاتب عمرو بن مسعدة، كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات: «أما بعد، فإنك ممن إذا غرس سقى غرسهُ، وإذا أسَّسَ بنى أُسَّهُ، ويجتني ثمرة غرسه، وبناؤك في ودي قد وهَى وشارف الدروس، وغرسك عندي قد عطش وأشفى على اليبوس، فتدارك بناء ما أسست، وسقي ما غرست»، فقال ابن الزيات: ما زاد الكرماني على أن نقل إليَّ قول أبي نواس يمدح البرامكة:[3]

إن البرامكة الكرام تعلموا فعلَ الجميل وعلَّموه الناسا

كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا لا يهدمون لما بنوه أساسا

---

(١) الديوان ق ١٧٠.

(٢) الطبري ٥ / ١٤٠.

(٣) ابن خلكان ٥ / ٩٩.

وإذا همُ صنعوا الصنائع في الورى جعلوا لها طيب البقاء لباسا

فعلامَ تسقيني وأنت سقيتني كأسَ المودة من جفائك كاسا

وموقف آخر يدل على علم ابن الزيات بالشعر وحسّه الفني والنقدي، ذلك ما نقله أبو الفرج من أن الشعراء اجتمعوا يوماً على باب المعتصم، فبعث لهم محمد بن عبد الملك الزيات، إن أمير المؤمنين يقول لكم: من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول النَّمَري[1] في الرشيد:[2]

خليفة الله إن الجودَ أوديةٌ أحلَّكَ اللهُ منها حيث تجتمعُ

من لم يكن بأمينِ الله معتصماً فليس بالصلواتِ الخمسِ ينتفعُ

إنْ أخلفَ القطرُ لم تخلف مخايلُهُ أو ضاقَ أمرٌ ذكرناه فيتسع

فليدخل، وإلا فلينصرف، فقام محمد بن وهيب فقال: فينا من يقول مثله، فسأله محمد بن عبد الملك الزيات: أي شيء قلت؟ فقال:

ثلاثة تشرقُ الدنيا ببهجتهم شمسُ الضحى وأبوإسحاق والقمرُ

تحكي أفاعيلُهُ في كلِّ نائبةٍ الغيثُ والليثُ والصمصامة الذكَرُ

فطرب ابن الزيات لشعره، وأمر بادخاله على المعتصم، وأحسن جائزتهُ[3].

إن ابن الزيات شاعر مجيد، أشاد به النقاد والأدباء والمؤلفون الذين ترجموا له أو ذكروه، من ذلك قول ابن العماد: «كان ابن الزيات أديباً بليغاً وشاعراً محسناً كامل الأدوات جهمياً»[4]، وكان أشعر الشعراء الكتاب، كما يستشف من قول أبي الفرج الأصفهاني: «كان محمد بن عبد الملك الزيات شاعراً مجيداً، ولا يقاس به أحد من

---

(١) هو منصور بن الزبرقان النمري شاعر من أهل الجزيرة، قدمه البرامكة للرشيد، فقال في مدحه شعراً كثيراً توفي نحو سنة ١٩٠هـ.

(٢) الأغاني ١٩ / ٨٠ ـ ٨١.

(٣) الأغاني ١٩ / ٨١.

(٤) شذرات الذهب ٣٤ / ١٥٤.

الـكُتَّاب »[1] وكذلك قالوا في ابن دريد إنه أشعر العلماء، ولكن أين موضع ابن الزيات من شعراء عصره، وفيهم الفحول من مثل مسلم بن الوليد (ت ٢٠٩ هـ) وأبي العتاهية (ت ٢١١ هـ) وأبي تمام (ت ٢٣٢هـ) ودِعْبِل الخـزاعي (ت ٢٤٦هـ) وعلي بن الجـهم (ت٢٤٩هـ) والبحتري (ت ٢٨٤ هـ) وغيرهم من معاصري ابن الزيات؟، وهل الأحكام التي مرت للأدباء الذين أشادوا بشعره وأعجبوا به وفضلوه تؤخذ على أنها حقائق، أم على أنها إعجاب ببعض شعره، وفي جوانب من فنونه وأغراضه؟ يرى الأستاذ جميل سعيد في مقدمة ديوانه أن أشعاره التي في ديوانه، لا تضعه في مصاف الشعراء المطبوعين، ولكنه، كما قال أبو الفرج: شاعر مجيد لا يقاس به أحد من الكُتَّاب، وهذا يعني أنه لا يقرن بالشعراء المطبوعين الكبار، ولا شك أن ابن الزيات شاعر لا يجارى حين يقول في الرثاء وما يتصل به من المعاني الحزينة، وهناك من الشعراء من كان يجيد في موضوع واحد دون سائر الأغراض، كما عرف عن الأخطل وإجادته في مدح الملوك ، وأبي نواس وإجادته إذا قال في الخمر، وأبي العتاهية حين يقول في الزهد، « وإن ابن الزيات شاعر لا يجارى حين يقول في الرثاء وما يتصل به من المعاني الحزينة، وأشعاره الوجدانية كلها من هذا الجيد، الذي يظهر فيه الصدق الأدبي »[2].

شعره:

لقد احتوى ديوان ابن الزيات على أكثر أغراض الشعر الشائعة في عصره، وظهرت في ديوانه الأغراض الشعرية الآتية: المديح، الرثاء، الهجاء، الغزل، الوصف، الخمرة، الإخوانيات، الحكمة، وبرع في الرثاء والمديح أكثر من بقية الفنون. ويحسن أن نقف عند أبرز وأهم الأغراض التي أجاد فيها، محيلين على الديوان الذي صنعناه عند الإشارة إلى الشعر (أرقام القصائد).

١ــ المديح:

في ديوان ابن الزيات ثلاث قصائد طوال جياد في المدح، الأولى: قالها في مدح الحسن بن سهل في مطلع حياته الأدبية، حيث قصد الحسن بن سهل في (فم الصلح)

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٥٢.

(٢) جميل سعيد ـ مقدمة ديوانه ص ز.

فامتدحه بقصيدة عدتها خمسة وثلاثون بيتاً، وكافأه الحسن بعشرة آلاف درهم(١)، والقصيدة الثانية الطويلة التي عدتها ثمان وخمسون بيتاً، قالها في الفضل بن سهل، وهي من القصائد الجياد التي سار فيها على نمط مدائح العصر من الركوب إلى الممدوح، واحتمال التعب والضنى ويحدوه الشوق إلى ممدوحه(٢)، وقد قال هذه القصيدة قبل أن يصبح وزيراً ، أما القصيدة الثالثة، فقصيدته في مدح المعتصم، وكان في هذا الوقت وزيراً لا يحتاج إلى التقرب إلى الولاة والأمراء، بل صار الناس يتقربون إليه، والقصيدة طويلة عدتها خمسون بيتاً(٣)، يسجل فيها ابن الزيات حروب وانتصارات المعتصم، وما أوقع بأعدائه من وقائع، ففي القصيدة تنويه وإشادة بفتح عمورية، وحرب بابك الخرمي وصلبه، وكذلك ما حل بالمازيار ومن تبعه من قتل وإذلال، ثم صلب المازيار، والقضاء على فتنة (الزط) وقمعهم، والقصيدة تسجيل للأعمال الجليلة التي قام بها المعتصم واستحق من الشاعر هذا المدح الذي بالغ فيه وجعله في مصاف التقاة الصالحين المؤمنين والفرسان المجاهدين والأئمة العادلين، يفتتح ابن الزيات القصيدة بالحديث عن نفسه بعد أن غزا الشيب رأسه، وجاوزه عهد الشباب، فلم يعد مطمعاً للنساء، والشيب يصد الغواني فيجعلهن يستغنين عنه، ويستهويهن الشباب اليافعون(٤)، ولم يقف طويلاً عند وصف حاله وما بلغه من السن التي يستغني فيها عن نزق الشباب، والأبيات ثلاثة جاءت على هذا النمط :(٥)

مـا للغـواني مَـنْ رأيـنَ برأسـه ... يَقَقَاً مَلِلْنَ وِصَالَهُ وشَنَئْنَهُ
وإذا عِـذارُ المَـرْءِ قَـلَّ قتيـرُهُ ... لاحظْنَـهُ ببشاشَةٍ وهَـوَيْنَـهُ
صدَفَتْ خُناسُكَ عنك بعد مودَّةٍ ... ورأتْ شبابَكَ باليـاً وغُضونَهُ

---

(١) الديوان ق ١٢٦ .
(٢) الديوان ق ٦١ .
(٣) الديوان ق ١٦٨ .
(٤) ولم يرد بهذا ذكر شيخوخة المعتصم، كما وهم القيس ص ٩٩ ، فالشاعر يتحدث عن نفسه، وهذا أسلوب قديم عرفه الجاهليون والأمويون في مطالع قصائد المديح .
(٥) الديوان ق ١٦٨ ب ١ـ٣ .

ثم يبدأ مديحهُ للمعتصم بأنْ يُضْفي عليه كل صفات الخليفة العادل المؤمن المتحلي بالعفاف والتقى، والساعي إلى إسعاد الناس ورضوان الله، والشاعر يتمثل في الخليفة الصفات التي يتخيلها ويتمناها في الخليفة المثال والرمز، وليس الخليفة الذي يعرفه، لا شك أنْ ليس بعد الخلفاء الراشدين خليفة تتمثل فيه هذه الصفات، سواء من خلفاء بني أمية أو بني العباس غير الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، والخلفاء بعامة مهما كان في سيرتهم من الانحراف والبغي والميل إلى اللهو والمجون، يحبون أن يُمدحوا هذا المديح من الصلاح والعدل والزهد والتقوى، فالشاعر قد جعل المعتصم في مصاف الصالحين التقاة العادلين الزهد، ولا شك أن في ذهنه صورة الخلفاء الراشدين، حيث يقول:

إنَّ الخليفةَ خيرُ منْ وطيء الحَصَى ... للــه يَمْحَضُ دينَــهُ ويقينَــهُ
سارتْ حكومتُــهُ بأعدلِ سيرةٍ ... أقصْوى البلادِ وفي الذين يلونَهُ
فالحقُّ أوضحُ مبصرٍ آيــاتــه ... والجَوْرُ يَطْمِسُ شَخْصَهُ وعيونَهُ
ورأى البريــةُ عَفْــوَهُ وعفــافَــهُ ... فالنــاسُ حَذْوَ طريقه يَحذونَهُ

ويبالغ الشاعر في تقديس الممدوح ورفع شأنه، بحيث يجعل طاعته من طاعة الله، وأن الله سبحانه جعله رحمة للناس، وبهديه يستنير المسلمون وتتضح معالم الدين:

طلبوا رِضــاُ بنِيَّــةٍ وتيقَّنــوا ... أنْ ليس يرضَى اللهُ أو يرضَوْنَــهُ
يخشون صولَتَهُ فهُمْ في طاعةٍ ... وكَمِثْلِ ما يخشَوْنَهُ يرجونَــهُ
إنَّ الخليفة رحمةٌ من ربِّنا ... وبه أنــارَ لنــا وأوضحَ دينَــهُ

وينتقل إلى ذكر بلاء المعتصم، وما أنزل بأعدائه من عذاب، وصبَّ عليهم النقمة والبلاء، فقهر ملك الروم، وهزم جنوده، وقضى على الزط، واستأصل شأفتهم، وأنهى عبثهم في البلاد، وسقى بابك كأس المنية، وكسر شوكة الخرمية، وأنزل بهم العقاب الشديد:

ملكٌ بأرضِ الرومِ أنزلَ نقمةً وأبادَ مالاً أهلُها يُحْصونَهُ

وأبادَ مالكَها وفلَّ جنودَهُ طَعْناً وزلزلَ مُلْكَهُ وحصونَه

والزُّطُّ أيُّ خليفةٍ دانوا لهُ أو كانَ قبلَكَ طاعةً يُعطُونَه

حتى مَلَكْتَ وظلَّ سيفكَ منهُمُ تكسو الدماءُ شِفارَهُ ومُتونَهُ

. . .

وسقيتَ بابكَ كأسَ حَتْفٍ مُرَّةً بفوارسٍ سحبوا القنا يتلونَهُ

وهكذا يسجل أعمال المعتصم وانتصاراته التي قضت على الخصوم، وأذلت أعداء الخليفة وأعداء المسلمين، ويقف عند معركة عمورية مزهوّاً مفاخراً يشيد بهذا النصر العظيم، ويصور الوقعة وما كان للمعتصم وجنده من بلاء شديد على الأعداء:

وإلى عَموريَّةٍ سما في جحفلٍ ملأ الفجاجَ سهولَهُ وحُزونَهُ

فأبادَ ساكنَها وحجَّلَ باطِساً حلقاً أذلَّ اللهُ مَن يحوِيْنَه

قتلى يُنَضِّدُهم بكلِّ طَريقَةٍ نَضْداً تخالُ مراقباً موضونَهُ

فهم بوادي الجَونِ قتلى فُرْقَةٌ وقبائلٌ فِرَقٌ ملأنَ سجونَهُ

ويذكر الشاعر خصوم المعتصم من قواد المشركين، وكيف حلَّ بهم البلاء، فهذا (باطس) الذي أذله وأنزله من حصنه وقاده أسيراً، ثم صلبه في سامراء، وكان صلبه إلى جانب بابك الخرمي، وكذلك ما فعله بالمازيار حيث أُسِرَ وجيء به إلى سامراء فصُلِب هناك إلى جانب بابك وباطس[1]، ويسهب ابن الزيات في كيفية دحر جند هؤلاء القادة وأسرهم، وجلبهم مكبلين بالأصفاد أذلاء خانعين، وما نزل بهم من عذاب وقتل، وينهي المقطع الأخير من القصيدة التي هي ملحمة من ملاحم النصر الذي قاده المعتصم، ينهي هذا المقطع بذكر الإفشين وما نزل به من عقاب وصلب، بعد أن حوكم وأقرَّ بكفره، وكان

---

(١) ابن الأثير ٥ / ٢٥١ .

المعتصم قد أقام محكمة لمحاكمته، كان من أعضائها محمد بن عبد الملك الزيات وأحمد ابن أبي دواد، ويصور ابن الزيات ما حل بالإفشين في قوله:

نيطَتْ عواملُهُ برأسِ عُذافِرٍ جعلَ الشريطَ عِرانَهُ وبُرينَهُ
من بعد ما بالكفر بكَّتْ حيدراً وأبانَ يوضحُ مُفْصِحاً مكنونهُ[1]
وجمعت كلَّ معدَّلٍ وسألتَهُ نصَّاً ليوضحَ كفْرَهُ ويُبينَهُ
فأقرَّ بالكُفْرِ المبينِ ولم يُرِدْ إلا الإلهَ ولم تُرِدْ تهجينَهُ

ويذكر ما كان من جحود الإفشين بعد أنْ أكرمهُ المعتصم، وجعله قائداً مُسَلَّطاً تمدحهُ الشعراء، وتشيد به، وترفع من مكانته:

وجزيتَ مادِحَهُ فأبصرَ شِعْرَهُ وأحبَّ كلَّ مدوِّنٍ تدوينَهُ
ورفعتهُ فوق النجومِ ولم تدعْ في المُلْكِ مصطفياً له تمكينهُ
وعصبتَهُ بالتاجِ عصْبَ جلالةٍ وجعلتَ خلْقَ اللهِ يسترعونَهُ

وهناك قطع وأبيات أخرى في مدح المعتصم، لا تقل جودة عن هذه القصيدة[2].

وقصيدة المدح الثانية التي لا تقل جودة وحسن صياغة عن قصيدة عمورية، قصيدته في مدح الفضل بن سهل السرخسي (١٥٤ ـ ٢٠٢هـ/ ٧٧١ ـ ٨١٨ م) وزير المأمون وصاحب تدبيره، كان مجوسياً وأسلم على يد المأمون سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٥ م، وصحبه قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً، فكان يلقب بذي الرياستين، رياسة الحرب ورياسة السياسة[3].

كان ابن الزيات في هذه الفترة شاعراً يقول الشعر محاكياً الكبار من شعراء عصره، كأبي تمام والبحتري، والكبار من الأمويين كجرير والفرزدق والأخطل في أماديحهم، فضلاً عن محاكاة الشعراء الجاهليين، وكانت هذه المحاكاة جيدة، موفقة

---

(١) حيدر: هو الإفشين قائد المعتصم الأكبر، اتهم بالزندقة والكفر فحوكم وصلب.
(٢) ينظر الديوان ق ٣، ٤١، ٥٠.
(٣) ابن خلكان ١/ ٤١٣، ابن الأثير ٦/ ٨٥، ١١٨، تاريخ بغداد ١٢/ ٣٣٩.

كل التوفيق، فقد أجاد في النسج على منوالهم من الوقوف على الديار والبكاء عندها، وعلى من كانوا قاطنيها، وما أثارته هذه الديار في نفسه من لواعج الشوق وحرِّ الذكريات، وما كان من أمر القاطنين وقد رحلوا، وكيف رحلوا، وماذا حلَّ بهم، وكيف بكى على فراقهم، وتحنن إلى اللحاق بهم، والقصيدة طويلة عدتها ثمانية وخمسون بيتاً، يبدؤها كما يبدأ الأقدمون قصائدهم الطوال:(١)

قِفْ بالمنازلِ والرَّبْعِ الذي دَثَرا ... فَسَقِّها الماءَ من عينيك والمطرا
بل ما بكاؤكَ في دارٍ تضمَّنَها ... رَيْبَ الزمانِ فأجلى أهلَها زُمَراً
بلى وجدتُ البُكا يُشْفي إذا طرقَتْ ... طوارقُ الهَمِّ إنْ سَحّاً وإنْ دَرَرَا
ما أحسنَ الصبرَ لو كان المحبُّ إذا ... حَلَّتْ به نوبةٌ من دهْرِه صَبَرا
كيف العَزاءُ ولم يتركْ له كَبِداً ... يومُ الفراقِ ولم يتركْ لهُ بَصَرا
ما زال يُشْعِلُ ناراً في جوانحِه ... ويُجْشِمُ المُقْلَتَينِ الدمعَ والسَّهَرا

وعلى هذا المنوال يمضي في وصف الرحلة والرحيل على الإبل المُخَيَّسَة، وما تركه الظاعنون في نفسه من شوق ولوعة، ثم يصل إلى مدح الفضل بن سهل. فيخاطبه وقد أضفى عليه صفات الدِّين والبطولة، والفضل والعطاء، والرياسة والكرم، وكل ما يشتهيه الممدوح من صفات الرجولة والبطولة والحكم:

يا ناصرَ الدين إذ رثَّتْ حبائلُهُ ... لأنتَ أكرمُ من آوى ومَن نصرا
أعطاكَ ربُّك من أفضالِ نِعْمَتِه ... رياستينِ ولم تظلمْ بهما بشَرا
لو كان خَلْقٌ ينالُ النجمَ من كَرَمٍ ... إذنْ لنالتْ يداكَ الشمسَ والقَمرا

ويتحدث ابن الزيات عن نفسه، بأنه لم يمدح سوى الفضل، ولم يركب إلى غيره السرى، ولم يتجشم إلا إليه الصعاب، ومع ذلك، فإن مدحه إعجابٌ به وببطولته، وليس طلباً للمال والغنى:

---

(١) الديوان ق ٦١.

لم أمتدِحْكَ رجاءَ المالِ أطلُبُهُ لكنْ لتُلْبِسَني التحجيلَ والغُررا
إليكَ أعْمَلْتُها تدمي مناسِمُها من مَسْحِها المَرْوَ والكَدّانَ والبَهَرا

ويعود فيعدد فضائل الفضل بن سهل ووقائعه في حرب أعداء المأمون، وكيف دبر أمر الحرب، وجاء بالجيش من مرو إلى العراق، وكيف آل أمر الناس بعد محنة الخلاف بين الأمين والمأمون، وكيف كان حال أهل بغداد، وما نزل بهم من بلاء وضُرٍّ:

هو الذي فُقِئَتْ عينُ الضلال به لَمّا تفاقم أمرُ الناسِ وانتشرا
ما زال يلحقها ضَرْماً مُضَرَّمةً في حومَةِ الموتِ حتى استنتجَ الظفرا
قاد الأعاديَ كُرْهاً خاضعين لهُ حتى أمرَّ على ما ساءَهُ المِرَرا
أبدى محاربةً ثم انبرى لَهُمُ بالمَكْرِ إنَّ ابنَ الحَرْبِ مَنْ مَكَرا
ساقَ الكتائبَ من مَرْوٍ فأوْرَدَها بطْنَ السَّوادِ يجرُّ الشوكَ والشجرا
حتى أحلَّتْ بدارِ المُلْكِ داهيَةٌ شابَ ابنُ عشرينَ منها واشتكى الكِبَرا

وكان الفضل ــ كما يصوره شعر ابن الزيات ــ هو النور بعد الظلمة، والمنقذ من الضلال، ولولا تدبيره وحزمه، لكان الناس جَزَراً للردى، فجاء وقد انقشعت الظُّلم وزالت الغُمَّة، وعمَّ الناسَ الخيرُ، لأنه لا يجمع المال إلا ريث يتلفه، لذلك فقد أخصب الناس بعد الجدب، وعم الخير بعد الخراب، فلا مشاحة أن يفديه الناس بأنفسهم وأعمارهم:

كم قد تداركْتَنا من قَعْرِ مظلمةٍ وكم جَبَرْتَ كسيرَ العَظْمِ فانجَبَرا
وكم سَنَنْتَ لنا في الخير من سُنَنٍ أمثالها ما علمنا تُنْبِتُ الشَّعْرا
أنت المدبِّرُ لولا ما تداركَنا من يُمْنِ رأيكَ كُنَّا للردى جَزَرا
لا يجمعُ المالَ إلاّ رَيْثَ يُتْلِفُهُ ولا يُزَهِّدُهُ في العُرْفِ من كَفَرا
كنا نقول ألا يا ليتَ باقينا والحيُّ منَّا كَمِثْلِ المَيْتِ إذْ قُبِرا
فالأرضُ بالذَّرِّ من طيبِ الزمانِ لنا تقولُ يا ليتَ إنَّ المَيْتَ قد نُشِرا
يا ليت أنَّا نقيه السُوْءَ أنْفُسَنا بل ليتَ أعمارَنا كانت لهُ عُمُرا

وفي ديوان ابن الزيات جملة مدائح أخرى(١).

٢ - الرثاء:

وإذا كان ابن الزيات قد أبدع في المديح وله في ذلك ثلاث قصائد ـ عرَّفنا باثنتين منها ـ وهي خير أماديحه، فإن له في الرثاء قصيدة واحدة جيدة عدتها ثمانية عشر بيتاً، وتعد هذه القصيدة درة من درر الرثاء في عصره، إن لم تكن أجود ما قيل في عصره من قصائد الرثاء، ولا شك أن السبب في جودة هذه القصيدة، وما فيها من صدق وعواطف متأججة، وحزن عميق، لأن الشاعر كان يرثي بعضاً من نفسه، وهو المفجوع المرزأ، فهو يعيش الفجيعة نفسها، وليس هو كشعراء الرثاء الآخرين الذين يرثون الآخرين ابتغاء الأجر، أو بدافع الوفاء وعرفان الجميل، فابن الزيات كان يرثي زوجته التي يحبها، وقد افتقد فيها الحب والحنان والمودة وطيب العيش، وقد افتقد ابنُه أُمَّهُ وهو ابنُ ثمان، فهو إذا جنَّه الليل تذكر أمه، وحنَّ إلى الالتصاق بصدرها ليرشف من حبها وحنانها ورعايتها، فلا يجد ذلك، وكانت صورة الطفل الباكي تحز في نفس ابن الزيات وتؤلمه وتبكيه، فتجعله ينوح عليها بصدق، ويذرف عليها دموعاً سخية، فهو يبدأ قصيدته بتصوير حال ابنه الذي ذاق اليتم صغيراً، وافتقد أعز مخلوق لديه، وابن الزيات في هذه القصيدة يجعل القارىء يشاركه وابنه في الحزن والشوق والبكاء:(٢)

ألا من رأي الطفلَ المفارقَ أُمَّـه بُعَـيدَ الكرى عيناهُ تَنْسَكِبانِ
رأى كـلَّ أُمٍّ وابنـهـا غيرَ أُمِّــهِ يبيتـانِ تحتَ الليـلِ يَنْتَجِيـانِ
وبـاتَ وحيداً في الفراشِ تُجِنُّـهُ بلابـلُ قلْـبٍ دائـمِ الخـفـقـانِ

هـذه حال الطفل، أما هو فلا يملك إلا البكاء، وإرسال الدموع الغزيرة لعلها تخفف أحزانه، وتشفيه مما يعانيه من حزن وضنى، قد يلومه الناس على بكائه، وكثيراً ما يلوم الناس على الجزع لفراق الزوجة، والبكاء عليها وزيارة قبرها، أما هو، فلا

(١) ينظر الديوان ق ٩٠، ٩٦، ١٣٤، ١٥١، ١٥٩.
(٢) الديوان ص ١٤٩.

يلتفت لهذا العُرف الكاذب، بل يداوي حرَّ الفجيعة بسكب الدموع، وإذا كان جرير الشاعر قد سبقه في الاعتذار عن البكاء على زوجته حين أراد أن يبكيها ويزور قبرها، فصده حياؤه من الناس عن زيارة قبر الحبيبة والبكاء عليها:(١)

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ولزرتُ قبرك والحبيبُ يُزارُ

فإن ابنَ الزيات، لم يمنعه الحياءُ الكاذب من أن يذرف الدمعَ سخياً ويزور قبرَها ويحنَّ إلى ذكراها وتتقطع نفسه على فراقها، وليس له من سلوة إلا ذرف الدمع الغزير:

ألا إنَّ سَجْلاً واحداً إنْ هَرَقتُهُ من الدَّمْعِ أو سَجْلين قد شَفياني
فلا تَلْحياني إنْ بكيتُ فإنَّما أداوي بهذا الدمعِ ما تريانِي
وإنَّ مكاناً في الثرى خطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كانَ من قلبي بكلِّ مكانِ
أحقُّ مكانٍ بالزيارةِ والهوى فهل أنتما إنْ عُجْتُ مُنْتَظِران

ولكن ذرف الدموع وزيارة القبور، والتجمل بالصبر، إن استطاع أن يتجلد ويغالب حزنه محتسباً ذلك أجراً عند الله، فهل يستطيع هذا الطفل وهو الضعيف الذي لا يعرف الصبر حسبة لله، ولا يلتمس السلوى عند الآخرين، ولا يدري ما العبرة في تصرف الزمان ، فهل هو قادر:

فَهَبْني عَزَمْتُ الصَّبْرَ عنها لأنني جليدٌ فمَنْ للصبرِ لابنِ ثمانِ
ضعيفُ القُوى لا يطلُبُ الأجرَ حِسْبةً ولا يأتَسي بالناسِ في الحدَثانِ

ويتذكر الشاعر أيامه مع هذه المرأة الحبيبة، التي كانت مصدر السعادة والحب والحنان، وفقَدَ بفَقْدها هناء العيش، ولم يستطع بعدها إلا الحسرة والحزن والأسى، فهو يبكي فيها الفراق والوفاء والسعادة والصون والعفاف:

ألا من أُمَنِّيهِ المُنى وأُعِدُّهُ لِعَثْرَةِ أيامي وصَرْفِ زماني

---

(١) ديوان جرير ص ١٥٤ ط صادر.

ألا مَنْ إذا ما جئتُ أكرمَ مجلسي وإنْ غِبْتُ عنهُ حاطَني وكفاني

فلم أرَ كالأقدار كيف تُصيبني ولا مثلَ هذا الدهر كيفَ رماني

ولا مثلَ أيامٍ فُجِعْتُ بعَهدِها ولا مثلَ يومٍ بعد ذاكَ دهاني

ولم يبق له بعدها من السلوى والعزاء إلا التذكر والبكاء، ففي البكاء على الحبيب تخفيف للحزن، وسلوة للنفس، ودواء للمصاب:

أَعَيْنَيَّ إنْ لم تُسْعِدا اليومَ عبْرَتي فبئسَ إذنْ ما في غدٍ تَعِداني

أعينيَّ إنْ أبْكِ البشاشةَ والصِّبا فقد آذنا مِنِّي وقد بكياني

ألا إنَّ مَيْتاً لم أزرْهُ لشدَّ ما تلبَّسَ من قَلْبي بهِ وعناني

ألا إنَّ ميتاً لم أزُرْهُ لعزَّ ما تَضَمَّنَ منهُ في الثَّرى الكَفَنانِ

وهناك بيتان آخران من غير هذه القصيدة، يحاور فيهما من يدعوه إلى زيارة قبرها، وهو يرى أن قبرها في فؤاده وبين ضلوعه، فهو لم ينسها، ولم يسلُ عنها:(١)

يقولُ لي الخُلاَّنُ لو زُرْتَ قبرَها فقلتُ وهلْ غيرُ الفؤادِ لها قَبْرُ

على حين لم أُحْدِثْ فأجهل فقدَها ولم أبلغْ السِّنَّ التي معها الصبرُ

وقد رثى ابن الزيات الخلفاء، رثى المعتصم ورثى الواثق، ولكن هذا الرثاء لا يرقى إلى قصيدته السابقة في صدق العاطفة وشدة اللوعة وحرارة الحزن، ففي القصيدة السابقة يرثي بضعة من نفسه، ويعبر عن مصيبته بمن أحب، وأما في رثاء الآخرين، فهو يؤدي واجباً، ويردَ جميلاً، فأبياته في الخليفتين نظم من النظم، يفتقر إلى صدق العاطفة وحرارة الوجدان، فما قاله في رثاء المعتصم لا يخرج عن وصفٍ لحادث، ومدحٍ لغائب، والتهنئة أو ما يشبه التهنئة للخليفة الوارث، فهو يقول:(٢)

---

(١) الديوان ق٥٤.

(٢) الديوان ق١٦١.

قـد قلـتُ إذ غَيَّبـوكَ وانصـرفـوا　　مـن خير قبرٍ لخيرِ مدفـونِ

اذهبْ فَنعْمَ الحفيظُ كنت على الـ　　ـدنيـا ونِعْمَ الظهيرُ للدِّيـنِ

لَـنْ يجبـرَ اللـهُ أمَّـةً فَقَـدَتْ　　مِثْلَكَ إلا بمِثْـلِ هـارونِ

وفي رثاء الواثق بأبيات ثلاثة، يدعو لقبره بالسقيا على عادة الجاهليين، ويرجو له الجنة، ومجاورة رسول الله ﷺ، وأن فقده قدر محتوم ولا رادَّ لما قدَّر الله:(١)

سقى قبرَكَ الهاطِلُ المُسبِلُ　　وجـادتْ لك الدِّيَـمُ الحُـفَّلُ

وأسكَنَكَ اللهُ خُلْـدَ الجنـا　　نِ وجاوركَ المصطَفى المرسَلُ

فقد بِنْـتَ مِنَّـا على حاجةٍ　　وهـل يُـدْفَـعُ القَـدَرُ المُنْزَلُ

ولا يُلامُ ابن الزيات على هذا الشعر المصنوع في رثاء الآخرين، وهو ككل الرثاء في الشعر العربي الموجه إلى الخلفاء والأمراء، وهو في حقيقته مديح للغائب، ونظم لأداء الواجب، فإذا تجلت فيه جودة الصناعة وبراعة الأداء، فإنه في حقيقته بهرج خارجي يخلو من صدق العاطفة وعمق الإحساس بالفجيعة، وما يهم الشاعر من موت الحاكمين، فحاكم يهمد وآخر يقوم، فوداع للغائب الذي ذهب، وذهب معه عطاؤه، وتهنئة للقادم الذي يُنتظر كرمه ورجاؤه.

٣ــ الغزل:

عاش ابن الزيات قبل أن يلي الوزارة حياة عريضة حافلة، ومارس فيها لذائذ الدنيا، وذاق حلاوتها، وعرف نساء كثيرات: فمنهن زوجاته، ومنهن من عشقهن من الحرائر والجواري، وتظهر في شعره ثلاثة أنواع من الغزل، الأول: عفيف صادق أشبه بالعذري، والثاني: حسِّي تقليدي، هو ضرب من اللهو والعبث، والثالث: إباحي ماجن، سواء كان في ذلك مع الجواري والقيان، أو الغزل بالغلمان، هذا الضرب من الغزل الذي طرأ على العصر، وتقبله فريق من الشعراء والكُتَّاب وأهل اليسار والترف من الخلفاء والخلعاء.

---

(١) الديوان ق ١١٥.

فأما غزله العفيف الصادق، فقد مرَّ بنا في سيرته، أنه كان يعشق جارية من جواري القيان، فبيعت من رجل من أهل خراسان ، فأخرجها، فذهل عقله حتى غُشي عليه، ولما أفاق أنشد :(١)

يا طولَ ساعاتِ ليلِ العاشقِ الدَّنِفِ   وطولَ رِعْيَتِهِ للنجمِ في السُّدفِ
ماذا تُواري ثيابي مِن أخي حُرَقٍ   كأنَّما الجسمُ منهُ دِقَّةُ الألِفِ
ما قال يا أسفا يعقوبُ من كَمَدٍ   إلا لِطُولِ الذي لاقى مِن الأسَفِ
مَنْ سرَّهُ أنْ يَرى ميتَ الهوى دَنِفاً   فليستَدِلَّ على الزيَّاتِ وليَقِفِ

وهي أبيات تدل على صدق العاطفة وحرارة الشوق، وشدة الحزن على فراق من أحب ففقدها.

وفي شعر ابن الزيات بعض القطع التي يصور فيها حاله وهو المحب الذي يتقطع أسى وحسرة على فراق من يحب، وهو يحاكي في شعره الشعراء العذريين، في أشواقهم وآلامهم وتصوير لوعتهم وحرمانهم، فهو في قطعة يتحدث عن حاله وما صار إليه بعد فراق محبوبته، ولعلها هي الجارية التي ذكرها في القطعة السابقة، يقول:(٢)

وحَدَّثتُ نفسي أنني غيرُ صابرٍ   فها أنا لم أقْضِ من إثْرِها نَحْبي
خليليَّ لم أصدقْ وكان سفاهةً   رجوعي بحسن الظنِّ منها على قلبي
فأُقْسِمُ أنْ لو كنتُ أوَّلَ ميِّتٍ   وآخرَ منشورٍ يَهُبُّ من التُّرْبِ
لما كان من موتي عليها صَبَابَةً   قضاءً لما استَتْرَعْتُ من ذِمَّةِ الحُبِّ

وظل ابن الزيات زمناً يذكر هذه الحبيبة التي نأت وبعدت وعزَّ مطلبها، وظل يتشوق إليها، ولم يُصْغِ لعذل العذال في تركها والسلو عنها، وما هي إلا جارية من الجواري، يجد في غيرها سلوة عنها وبديلاً، وهو راض مهما لقي من حبيبته البعيدة

---

(١) تاريخ بغداد ٣ / ١٤٥، شذرات الذهب ٣ / ١٥٥، والديوان ق٩٤.
(٢) الديوان ق١٦.

القريبة، فهو راض بحبها، مقيم على ودها، وهو غريب في أهله ما دام حبيبه بعيداً عنه:(١)

بَعُدَ القريبُ وأعوزَ المطلوبُ وعدَتْكَ عنهُ حوادثٌ وخُطوبُ
ومُنيتُ من بُعْدِ الحبيبِ بعاذلٍ يلحى ويعجبُ أنْ يحنَّ كئيبُ
قالوا أساءَ حبيبُهُ فأجَبْتُهمْ إنَّ الحبيبَ وإنْ أساءَ حبيب
إنَّ المُحبَّ وإنْ أقام بأهلِه ما لم يكنْ فيمنْ يُحِبُّ غريبُ

وفي شعره قطع غيرها يذكر فراق الحبيبة، وشوقه إليها، ويتذكر دائماً ساعة الفراق، ونظرات حبيبته وهي ترمقه مودعة وما كان من أثر هذه النظرة في نفسه، حيث أججت في كبده نار الشوق، وحرارة الوجد، فهو في شوقه إليها كشوق أم فارقت وحيدها فباتت مؤرقة، يضطرم قلبها بالهم والوجد، وتعتصره اللوعة والأحزان، فليس له بعد ذلك من سلوة وعزاء، إلا أن يذرف الدموع الغزار، ويشتد به الوجد كلما لمع البرق، وهبت الريح من تلقاء ديارها، وهي ديار شامية:(٢)

ما أسرعَ البينَ بل ما أسرعَ الفرجا إنْ كنتُ أرجو كما أخشى فلا حَرَجا
ما أمُّ واحدٍ أمٌ لا أنيسَ لها إلاّ الذي رسَخَتْ بالأمسِ فاختلجا
باتتْ وباتَ لها هَمٌّ يُؤَرِّقُها من عالجٍ في بناتِ القلبِ قد وشَجا
إلاّ كمثلي وإنْ جلَّتْ رَزِيَّتُها إذ أزعجَ البينُ مَنْ أهواهُ فانزعَجا
نظرتُ يومَ تَوَلَّتْ نظرةً عَرَضاً وجدْتُ في كَبِدي من حَرِّها وهَجَا
بمُقْلةٍ كلَّما كَفْكَفْتُ دمعَتَها هاجَتْ مساربُها بالدَّمعِ فاعْتَلَجا
كأنَّها عارضٌ مخضوضلٌ هَزِجٌ هاجَتْ له حَرْجَفٌ حصباءُ فانبعجا
تاللهِ ما عَصَفَتْ ريحٌ شآميةٌ إلاّ تنسَّمْتُ منها ريحَكِ الأرِجا
ولا سنا البرقُ لي من نحو دارِكُمُ إلاّ تنعَّشْتُ واستقبلْتُهُ بَهِجا

---

(١) الديوان ق ٨.
(٢) الديوان ق ٣٤.

ويتداخل شعره الصادق العفيف الذي يقترب من شعر العذريين، بشعره الحسي الصريح، فنجد في قصيدة يذكر الشوق والفراق وما يعانيه من سهر وعذاب، يرقب النجوم ويتأمل في كواكب السماء، ويتذكر أيامه مع من أحب، وكيف كان يزورها، وهي محبة له، عاشقة ولهى، فنهل وإياها وعَلاً من كؤوس الحب والغرام، وكان يزورها رغم عذل العاذلين وعيون الرقباء، وهي تستتر وتنتظر غفلة الرقباء، ويكون بينهما ما يكون بين العاشقين من علامات وإمارات، إذا سار أو تنحنح تظهر له، ويتبادلان الحب الصريح ولذائذ المحبين، فينال منها وتنال منه، أما وقد فارقته وسارت بها الحمول فبعدت، فما له منها غير الشوق والذكرى، وسيظل يذكرها مخلصاً لها متشوقاً إليها حتى يغشاه الموت، والقصيدة من القصائد الجياد، التي تدل على موهبة فذة وشاعرية أصيلة، وتقع القصيدة في اثنين وثلاثين بيتاً، ويحسن بمن يريد الوقوف على غزل ابن الزيات وفنه البارع أن يقرأ القصيدة كاملة، وهي تبدأ بذكر اللوّام العاذلين: (١)

ألا مَنْ عذيرُ النفسِ ممَّن يلومُها ... على حُبِّها جهلاً ألا مَن عذيرُها

تذكَّرتُ أياماً تولَّى سرورُها ... فدَرَّ لعَيني عندَ ذاك دَرورُها

فبِتُّ كأنِّي بالنجومِ موكَّلٌ ... أُقَلِّبُ فيها مُقْلَتي وأديرُها

كأنَّ بناتِ النعْشِ باسِطُ كفِّهِ ... وقد مَدَّ كفّاً للسؤالِ فقيرُها

ويتذكر الأيام الحبيبة إلى نفسه:

ليالِيَ كانت مَن تُحِبُّ أميرةً ... عليكَ ومولاةً وأنتَ أميرُها

وكانت أسيراً في وثاقِكَ ينتهي ... إلى كلِّ مَنْ تهوى وأنتَ أسيرُها

ويذكر ما يفعله العذال الذين حرموه لقاءها وتركوه وإياها في حرمان وحسرات:

وفي الصدرِ منِّي غُصَّةٌ لا أُحيرُها ... وفي الصَّدْرِ منها غُصَّةٌ لا تحيرُها

دهاني وإيَّاها العُداةُ فأصبحتْ ... وقد أُسْبِلتْ دوني عليها ستورُها

---

(١) الديوان ق ٧٤.

وكانت علاماتي إليها تَنَحْنُحي ويُنْذِرُها من حسِّ نَعْلي صريرُها

وكانت إذا ما جاء غيري تسترتْ وكان لديَّ بذْلُها وستورُها

وأصبحتُ أرضى بالقليلِ وربَّما طلبتُ فلم يَعْسُرْ عليَّ كثيرُها

وعلى الرغم مما كان ينال منها، ويستمتع بها، فإنه عاشق محب مدنف:

ولو أنَّني أدعى لدى الموتِ باسمِها لعاد لنفسي ـ بإذنِ ربي ـ نشورُها

أُعَلِّلُ نفسي بالأماني مخافةً عليها إذا ما الشوقُ كاد يُطيرُها

وأدعو ـ إذا ما خِفْتُ أنْ يغلبَ الهوى عليها ـ غرامي باسمها أستجيرُها

وكان ابن الزيات يفعل ما كان جميل بن معمر يفعله حين يذكر اسم غيرها وهو يريدها، وحين ينظر إلى غيرها وهو لا يرى غيرها وذلك في قوله:(١)

سأمنحُ طرفي حين ألقاكِ غيرَكم لكيما يروا أن الهوى حيث أنظرُ

وأكني بأسماء سواك وأتقي زيارتكم والحبُّ لا يتغيَّرُ

فكذلك ابن الزيات يعتذر إلى حبيبته بأنه لا يصل غيرها، ولا يزور سواها من النساء، وقد يكني عنها، ويلهج باسم غيرها، وهو يريدها هي دون سواها:

وقد زعمتُ أني سمحْتُ لغيرِها بوصْلٍ ولا والبُدْنِ تَدْمى نُحورُها

وربِّ المنايا لا أميلُ زيارتي إلى غيرها أُنثى ولا أستَزيرُها

ولكنَّني كَنَّيْتُ عنها بغيرِها مخافةَ عينٍ لا ينامُ بصيرُها

عليَّ نذورٌ جمَّةٌ في لقائها فليتَ نذوري أوجَبَتْ ونُذورُها

أما من مُشيرٍ ـ سَدَّدَ اللهُ رأيهُ ـ يرى أنَّ فيها حيلةً لا يضيرُها

وضرب آخر من الغزل مارسه ابن الزيات، هو الغزل الصريح الماجن الداعر، الذي يصور العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، ويتباهى بأنه فحل يصول ويجول،

---

(١) ديوان جميل بثينة ص ٣١ـ ٣٢، نشر حسين نصار القاهرة د.ت.

مستمتعاً بجسد المرأة، وعابثاً فيه ما شاء له العبث، مفاخراً بفحولته، وكاشفاً عن نفسه ثوب العفَّة والحياء، وهو في هذه القصيدة التي نتحدث عنها، يروي ما كان له من مغامرات في عهد الصبا، فقد عبَّ من الشهوات، وارتوى من المتع المحرمة، ويصف امرأة من النساء جميلة، قد نضجت أنوثتها، لا ينتقص من حسنها شيء، وهو فارسها العرم، الذي كان قبل أن يودع عهد الشباب :(١)

وليلٍ كلونِ الطيلسانِ سَرَيتُهُ على بطنِ خَوْدٍ بضَّةِ المُتَجَرِّدِ
جَزوعٍ على الإدلاجِ أعجَلُ سيرها الوقوفُ إذا استعجلْتُ والضمُّ باليدِ

ويذهب في تصوير تلك الخلوة الداعرة، فيذكر العورات ويسمي الأشياء بأسمائها، دون أن يوري أو يكني ، ونتجاوز هنا عن ذكر ما فيها من الموبقات ومما يخدش الحياء، ولكننا نذكر بعض وصفه لمحاسنها :

حُواريَّةٌ زَيْنُ النِّقابِ انتقابُها وإنْ سَفَرَت فالشمسُ وافتْ بأسْعدِ
وإنْ قَعَدتْ زانَ القعودَ قعودُها وإنْ تمشِ لايعدِمْكَ حُسْنُ التأوُّدِ
فهاتيكَ أقرى طارقَ الهمِّ لا التي تروحُ بأحناءِ الرجالِ وتغتدي

وكل ذلك كان في عهد الصبا، الذي لم يقصر فيه ، ولم يندم عليه :

أعاذلَ لا أدعى المقصِّرَ في الصِّبا ولا أتوقَّى اليومَ نائبةَ الغدِ
أعاذلَ لم أبلُغْ ـ فأصحو وأرتدعْ ـ أشُدِّي ولا ما جاوزَ النصفَ مولدي

الغزل بالمذكر :

وفي زمن ابن الزيات كثرت مجالس اللهو والطرب والمجون، وجاهروا بذكر الخمرة وشربها، ولم يتورع منها الأمراء والخلفاء، وكثرت في هذه المجالس الجواري والغلمان، وكان للغلمان نصيب من الغزل عرف عند شعراء العصر، وقلما سلم منه ديوان شاعر، وكان ابن الزيات قد أخذ نصيبه من التغزل بالغلمان والتمتع بهم، على ما ترويه

---

(١) الديوان ق٤٨ .

أخباره وأشعاره، ومن أخباره في ذلك ما رواه الأصفهاني من أنه كان يعشق غلاماً لعمير المأموني، وكان يحبه ويجن به جنوناً، وتصادف أن اجتاز به يوماً والغلام على ظهر فرسه، يخطر في شبابه وزينته، مقلداً الفرسان في زيهم وسلاحهم، فقال ابن الزيات :(١)

راحَ علينا راكباً طِرْفَهُ أَغْيَدُ مِثْلُ الرشأ الآنِسِ
قد لَبِسَ القُرْطُقَ واسْتَمْسَكَتْ كفَّاهُ من ذي بُرَقٍ يابسِ
وقُلِّدَ السيفَ على غُنْجِهِ كأنَّهُ في وقعةِ الدَّاحِسِ
أقولُ لَمَّا أنْ بدا مُقْبِلاً يا ليتني فارسُ ذا الفارِسِ

ويبدو أن حبَّهُ للغلمانِ لم يكن تهمة يُرمى بها، فقد كان في مُلْكِهِ غلمان ذوو حسن وجمال، وحين وُصِف ابن الزيات بأنه من لوطيَّةِ الكُتَّاب، لم يغضب ولم ينكر، ومصداق ذلك في الرواية التي ساقها أبو الفرج حيث يقول: «إن ابن دنقش الحاجب، جاء إلى محمد بن عبد الملك الزيات، برسالة من المعتصم ليحضر، فدخل ليلبس ثيابه، ورأى ابن دنقش الحاجب غلماناً لهم رُوقة، فقال وهو يظن أنه لا يسمع:

وعلى اللواطِ فلا تلومنَّ كاتباً إنَّ اللواطَ سجيَّةُ الكُتَّابِ

فقال له ابن الزيات:

وكما اللواط سجيَّةُ الكُتَّابِ فكذا الخُلاقُ سجيَّةُ الحُجَّابِ

يرميه بالأُبْنَة، فاستحيا ابن دنقش واعتذر إليه، فقال له: إنما يقع العذر لو لم يقع الاقتصاص، فأما وقد كافأتك فلا»(٢). وفي شعر ابن الزيات مقطعات في الغزل بالغلمان، ولعل أسوأ ما في هذا الضرب من الغزل قصيدته التي يبدؤها بقوله:(٣)

تركَ اللهوَ والصِّبا وتخلَّى من الغزلْ

---

(١) الأغاني ٣/٦٨، والديوان ق ٧٧.
(٢) الأغاني ٢٣/٥٨، الهفوات النادرة ص ٣٨٨.
(٣) الديوان ق ١٢٥، وشعره في الغزل كثير، انظر ديوانه ق ٩، ٢٣، ٣٤، ٤٥، ٦٤، ٦٧، ٨٠، ٨٥، وغيره.

فقد وصف فيها غلاماً، وبالغ في ذكر محاسنه، وكما أفحش في غزله في النساء، وذكر لقائه الفاحش بهن، في قصيدته التي مر ذكرها، فقد أفحش في هذه القصيدة، وذكر ما يشتهيه في الغلام، وصرَّح بفضل هذا الشذوذ، حيث يأمن في الغلام ما لا يأمنه من عواقب فعله بالنساء، من الطمث والحبل واقتناص الخلوات، وذكرَ العمل القبيح تصريحا لا تلميحاً، ولعل هذا الضرب من الشعر الذي نستهجنه الآن ونستقبحه، كان يلقى القبول في ذلك العصر لدى طائفة من المجتمع، قد ألِفَتْ اللهو الشاذ والمجون الذي بدأ في هذا العصر، وتلقفه شعراء الأجيال التالية من مثل أبي نواس وأضرابه كوالبة بن الحباب وحماد عجرد وغيرهم.

٤ ــ الخمر ومجالسها:

لا يرد ذكر الخمرة إلا في سياق ذكر مجالسها وندمانها، وما يجري في تلك المجالس من ضروب اللهو والمفاكهة، والموسيقى والغناء والرقص، وقد تكون المجالس متزنة خالية من المجون، وقد تكون مغرقة في المجون الفاضح، وكان ابن الزيات ــ وقبل وزارته خاصة ــ يعيش حياته العريضة اللاهية، فيحضر مجالس اللهو والخمر والطرب، ويصف هذه المجالس بصحبة صاحبه وكبير المجلس المسمى (يحيى)، حيث يذكره في قطعتين، يذكر في القطعة الأولى المجلس الذي ترأسه يحيى في كثير من الثناء، ويصف آداب المجالسة والمنادمة، ففي المجلس أحاديث طلية شائقة، والجلساء لهم مكانتهم، ويحيى يسقيهم، أو يأمر بسقايتهم، فمنهم من يشرب الخمر ومنهم من يشرب النبيذ[1]، ويتغزل بهذه الخمر الصافية التي تكاد تضيء لصفائها، ويقارن ابن الزيات بين الخمرة التي يجلها لأنها تفعل فعلها في رأس شاربيها، وبين النبيذ الذي لا يسكر، ويشربه المعتدلون من الجلاس، ويبدأ أبياته بالسقيا لذلك المجلس:[2]

سقياً لمجلسنا الذي جُمِعَتْ به ... طُرَفُ الحديثِ وطاعةُ الجُلاَّسِ

ظَلَّنا ويحيى كالمؤمَّرِ بيننا ... نُسقى ونشربُ تارةً بالكاسِ

---

(١) لقد وهم فايز القيس ص١٤٥ حين ظن أن القهوة ليست خمرا، بل هي قهوة عصرنا الحديث.

(٢) الديوان ق٧٥.

نصفينِ يَشربُ بعضُنا من قهـوةٍ صرْفٍ تُضيءُ كشُعْلَةِ المقباسِ
والآخـرون على النبيذ عكوفُهـم شتـانَ إنْ قِسْناهـمـا بقيـاس

وفي القطعة الثانية يذكر كبير المجلس يحيى، ويتغزل بالخمرة المعتقة، التي يشربها النعسان فيصحو، وهي خمرة سلاف قديمة العهد، إذا سُكبت في الكأس كان الحبب فيها كأنه الدرُّ وحوله حبات صغيرة هي الشذر، وهي صافية مضيئة لا يستطيع أن يوفيها حقها من الوصف، فهي لا تكاد تُرى، ولكن تُبْصر بالضمير:(١)

أنْفِ بالخـمـرِ نعـسَةَ المخـمـور واسْقِ يحـيى كـبيـرَنا بالكبـيـرِ
من سُلافٍ تُديـرُ طَوْقـاً من الدُّرْ رِ عليـهـا مُفَصَّلاً بشـذورِ
عَمَرتْ والزمـانُ في حِجْرِ أمٍّ حَضَّنَتْهـا بالبرِّ والتَّوقيـرِ
فـدَّمَتْهـا المرابيـات من الدهـ ـرِ فـأبقَتْ قليلةً من كـثـيـرِ
لستُ في وصـفـهـا ببـالغِ شيءٍ غـيـرَ أنّي أُقرُّ بالتـقـصـيـرِ
فـإذا الكأسُ أقـبلتْ فـبنوعـيـ ـنِ سُلافٍ مُعَتَّقٍ وسُرورِ
غـيـر أن السُّلافَ تُبْصِرُهُ العـيـ ـنُ وهذا يُرى بعينِ الضـمـيـرِ

وقد سبق ابن الزيات في تدقيقه في وصف الخمر ومدحها والتغزل بها، سبق أبا نواس الذي سار على هذا النهج، فأجاد وبالغ وتوسع.

وفي قطعة ثالثة يتحدث ابن الزيات عن مجلس خاص جمعه بمن يحب فتبادلا كؤوس الطِّلا، وهما يتناجيا ويبكيان من حرقة الشوق، ويلذ له هذا المجلس الذي تمتزج فيه الخمر بدموع الشوق والهيام:(٢)

مجلسُ صَبَّيْـنِ مُحبَّـيـنِ ليسا من الحُـبِّ بخلْوَيْن
قد صَيَّرا روحَيْهما واحداً فـاقْتَسمـاهُ بـين جسمَيْنِ

---

(١) الديوان ق ٦٨.
(٢) الديوان ق ١٥٨.

تنازَعا كأساً على لَذَّةٍ قد مزَجاها بينَ دمعين
والكأسُ لا تَحْسُنُ إلا إذا أدَرْتَها بين مُحِبَّيْنِ

وليس هذا كل ما في شعر ابن الزيات من وصف الخمر ومجالسها، فهناك أشعار أخر تدور في هذا الفلك من المعاني، وهذا النفس من النظم المعبِّر الرقيق.

٥ــ الهجاء:

كان أشد خصوم ابن الزيات هو القاضي أحمد بن أبي دواد، وكان كل منهما يبغض الآخر بغضاً شديداً، واشتد هذا البغض حين صار ابن الزيات وزيراً، وقد هجا ابن الزيات ابنَ أبي دواد بأشعار كثيرة، منها قصيدة طويلة في سبعين أو تسعين بيتاً، ضاعت هذه القصيدة ولم تعرف إلا من خلال رد ابن أبي دواد ــ أو أحد أنصاره ــ عليها، وذلك في قوله: (١)

أحسن من تسعين بيتاً سدى جمعُك إياهُنَّ في بيتِ
ما أحوج المُلْكَ إلى مطرةٍ تُذهِبُ عنَّا وَضَرَ الزيتِ

وليس فيما هجي به ابن الزيات انتقاص من نسبه أو خلقه، بل كان الهجاء منصباً على مهنة أبيه وأجداده وهي تجارة الزيت، ولذلك يجيب ابن الزيات أبا سعيد الفيشي، الذي يصفه بالمأفون ويتهدده، ويفخر هو بمكانته وحسبه، في قوله: (٢)

يا أيُّها المأفونُ رأياً لقد تَعَرَّضَتْ نفسُكَ للموتِ
قيَّرتُمُ المُلْكَ فلم تنتهوا حتى غَسَلْنا القارَ بالزيتِ
الزيتُ لا يُزري بأحسابِنا أحسابُنا معروفةُ البيتِ

وفي هجائه لابن أبي دواد ينتقص من أصله وحسبه، ويسخر منه ويهزأ به، فيشبهه بالأفعى، وابن أبي دواد في سلوكه مع ابن الزيات ــ ومع خصومه الذين لم يقولوا بخلق

---

(١) الأغاني ٢٠ / ٥١ ط ساسي، وينسب البيتان إلى أبي سعيد الفيشي.
(٢) الديوان ق ٣٠.

القرآن ــ أفعى دون ريب، ويراه أشبه ما يكون بالغراب دليل الشؤم، يقول:(١)

وقالوا هل رأيتَ أبا دوادٍ فقلتُ: نعم رأيتُ أبا الخُبابِ

فقالوا: لا عليك رأيتَ منهُ كأشبَهِ بالغُرابِ من الغُرابِ

وكثيراً ما يعيّره بنسبه، وأنه ليس من إياد وإنْ انتسب إليهم، ويغمزه بأنه ليس ابن أبيه، ويسخر من دولة صار فيها عزيزاً، وأعماله السيئة تثبت كذبه في ادعاء النسب:(٢)

تأيَّدَ وادَّعَى القُرْبا وأثْرى واستفادَ أبا

لتَهْنِكَ دولةٌ حَدَثَتْ فأحدَثَ عزُّها نسبا

صنائعُهُ إلى الأنْذا لِ تُخْبِرُ أنَّهُ كَذَبا

ويلح ابن الزيات على ضعة نسب ابن أبي دواد وأنه دعي إياد، ويرى أنه فاسد لا تصلح الدنيا ما دام فيها، وحقه أن يقتل كما قُتل الإفشين، ويذهب ابن الزيات يعدد مساوىء خصمه وأعماله الخبيثة، ويشكك في سلوكه وفي دينه، وأعماله التي ستودي به، فهو كعنز السوء التي بحثت عن حتفها بظلفها:(٣)

أبلغْ دَعِيَّ إيادٍ إنْ مررْتَ بهِ قولَ امرىءٍ ناصحٍ للهِ والدِّينِ

لن تَصْلُحَ الأرضُ ما أُسْكِنْتَ ظاهِرَها ولا ترى العدلَ أو تلحق بإفشينِ

مازلتَ تحضرُ للخذلانِ عن دَغَلٍ في القلبِ منكَ لهذا الدِّينِ مكنونِ

وكنتَ في ذالكَ لَمَّا أنْ قَصَدْتَ لهُ كالعَنْزِ إنْ بحثتْ عن حدِّ سكِّينِ

ولا شك أن ابن الزيات قد وجد في خصمه مثلبة في نسبه فراح يلح عليها ويكثر من ذكرها، ومن الدلائل على هجنة ابن أبي دواد وبعده عن العرب أنه لم يستطع

---

(١) الديوان ق١٣.

(٢) الديوان ق١٠.

(٣) الديوان ق١٦٠.

التزوج من امرأة عربية، هو وابنه أحمد، وكان ابن أبي دواد على صلة حسنة بالأمير الشاعر أبي دلف العجلي، وقد استاء ابن الزيات من هذه الصلة فراح يعرِّض بأبي دُلَفٍ أيضاً وينتقص منه، وقد جَرَّ هذا على ابن الزيات هجاء الشعراء الذين يقصدون أبا دُلَف ويمدحونه، وهو الشاعر الفارس الكريم، يقول ابن الزيات في هجاء أحمد بن أبي دواد والتعريض بأبي دُلَفٍ العجلي :(١)

ما بالُهُ وابنُهُ لم يُزوَّجا عَربيَّةْ
ولا أبوه على ما بهم من العصبيَّةْ
لكنهم حين صاروا إلى الأمور السَّنِيَّهْ
قد أبعدوا في التَّمنِّي وأرْغبوا في العَطيَّةْ
فلا جزى اللهُ عِجْلاً والعُصْبَةَ الدُّلَفيَّةْ
خيراً ولا تركَ اللـ ـه فيهُمُ من بَقيَّةْ

وكان علي بن جبلة العَكَوَّك من أنصار أبي دُلَفٍ العجلي، وله فيه مدائح جيدة، حتى قيل إنها أثارت حسد المأمون فنكل به، وكان ابن الزيات يبغض أبا دُلَفٍ ويعرض به ويهجو من يمدحه، وقد غضب العَكَوَّك حين وجد ابن الزيات يعرض بممدوحه أبي دُلَفٍ، فهجاه بأبيات يعيره فيها بصنعته وينتقص من نسبه، منها : (٢)

يا بائعَ الزيتِ عَرِّجْ غير مرموقِ لتُشْغلنَّ عن الأرطالِ والسوقِ
من رام شتمك لم ينزعْ إلى كَذِبٍ في منتماك وأبداهُ بتحقيقِ
أبوك عبدٌ وللأمِّ التي خُلِقَتْ عن أمِّ رأسِكَ هَنٌ غير محلوقِ

فيجيبه ابن الزيات منتقصاً منه ومهدداً، ويصفه بأنه بذيء اللسان سيئ الأدب، ويعرج على أبي دلف فيهجوه ويسخر منه : (٣)

---

(١) الديوان ق ١٧٢ .
(٢) ديوان علي بن جبلة ص ٨٨ .
(٣) الديوان ق ٢١ .

اشمخْ بأنفكَ يا ذا العِرْضِ والحَسَبِ ما شئْتَ واضربْ قَذالَ الأرضِ بالذنبِ
ارفعْ بصوتِكَ تدعو من بذي عدَنٍ ومن بقالي قلا بالويلِ والحَرَبِ
ما أنتَ إلا امرؤٌ أعطى بلاغتَهُ فَضْلَ العِنانِ فلم يَرْبَعْ على أدبِ

ويمضي في هجائه حتى يتوصل إلى هجاء أبي دُلَفٍ فيقول:

صبراً أبا دُلَفٍ في كلِّ مسألةٍ كالقِدْرِ وقفاً على الجاراتِ بالعُقَبِ
يا ربِّ إنْ كانَ ما أنشأتَ من عربٍ شروى أبي دُلَفٍ فاسْخَطْ على العربِ
أرى التعصُّبَ أبدى منكَ داهيةً كانت تَحَجَّبُ دونَ الوَهْمِ بالحُجُبِ
أزرى بكَ الغضبُ المُزْري وأنت فتى لا تُصْطَلى نارُهُ فاغْضَبْ على الغَضَبِ

وكما ألحَّ ابن الزيات على هجاء ابن أبي دواد، فإنه ألحَّ أيضاً على هجاء عيسى بن زينب، واتخذ من عِظَم أنفه سبباً في هجائه والسخرية منه، وتصويره بصورة ساخرة مضحكة، وقد سبق ابن الزيات في هذا الفن ابن الرومي في براعة تصوير العيوب وتضخيمها، ولا بد أن عيسى هذا قد أساء إلى ابن الزيات الذي فرغ لهجائه واتخذ من أنفه سبيلاً للهُزْءِ والإضحاك، فهو يخاطبُ أنف عيسى ولا يخاطب عيسى نفسه، لأن عيسى فيما يزعم جزء ضئيل من الأنف الكبير، الذي هو حصن حصين:(١)

يا أنفَ عيسى جزاكَ اللهُ صالحةً وزادكَ اللهُ إشراقاً ومُتَّسَعا
حِصْنٌ حَصينٌ وعزٌّ لو تناولَهُ كِسْرى الملوك أنو شروانُ لا مْتَنَعا
تركت عيسى فما عندي مُخاطبةٌ له وخاطَبْتُ أنفاً طالَ وارتفعا
عيسى غلامٌ ولكنْ أنفهُ رجلٌ والقرنُ يحسنُ منه كلَّ ما صنعا
رأيتُ أنفاً ولم أعلمْ بصاحبِه فقلت: من صاحبُ الأنفِ الذي طلعا
قالوا فتى غاب فيه قلت: واعَجبي ما إنْ رأى مثلَ ذا راءٍ ولا سمعا

---

(١) الديوان ق ٨٣.

وهكذا يمضي في قصيدته هازئاً ومصوراً أنَّ عيسى سقط في جب هو أنفه، ويسأل الناس أن يلتمسوا حبلاً ليخرجوه من هذا الجب العميق الذي هو أنفه، وفي قطعة يجعل عيسى إذا نام التصق أنفه بالسقف وكاد يقلعه، وهذا الأنف العظيم لو استنشق الثورَ لدخل فيه بقرنيه وأظلافه، ولو ركب عيسى فرساً لكان الراكب هو الأنف وكان عيسى رديفاً لأنفه، والقطعة تسير على هذا المنوال: (١)

قلْ لعيسى أنْفِ أنْفه ... أنفُهُ ضِعْفٌ لِضِعْفهْ
لم يَنَمْ مُذْ كان إلاّ ... ألصقَ الأنفَ بسَقْفهْ
فترى السقفَ وقد أخـ ... ـرَبَهُ منهُ بحَرْفهْ
أنتَ لو تَسْتَنْشِقُ الثـ ... ـورَ بِقَرْنَيه وظِلْفهْ
لهوى في مَنْخِرٍ يَسْـ ... ـتَغْرِقُ الخَلْقَ بِنِصْفهْ
لو تراهُ راكباً والتِّـ ... ـهُ قد مالَ بِعِطْفهْ
لرأيتَ الأنفَ في السَّرْ ... جِ وعيسى رِدْفُ أنفهْ

وأشعار الهجاء في ديوان ابن الزيات كثيرة ، فهو ـ كما قدمنا ـ رجل شديد حازم، معتد بنفسه كثير الخصوم، ولذلك كثر أعداؤه وقلَّ أنصاره وأودَّاؤُهُ، فمن هجاهم ابن الزيات، غير من تقدم: إبراهيم بن المهدي، وعلي بن عثمان، وأبو سعيد الفيشي، ومحمد بن ثابت مولى نصير، وأبو دهمان المغني، والعباس بن المأمون، ورجل اسمه أبو خلف، وعلي بن سعيد، وإبراهيم بن رباح، ومجموعة من الأصحاب، وقينة من القيان، وأناس لم تُذْكَرْ أسماؤهم، وإنما ذُكرت صفاتهم، وهكذا فشعره حافل بضروب الهجاء، وهو بعامة هجاء قاس فيه هزء وإضحاك وانتقاص من المهجو.

٦ـ العتاب والإخوانيات:

ولم يعدم ابن الزيات مجموعة من الأصدقاء، الذين كانوا يداعبونه ويراسلونه، ويعاتبونه إذا أبطأ في زيارتهم أو عيادتهم، وكان يرد عليهم ويداعبهم

(١) الديوان ق ٩٧.

ويعتذر لهم، وكان من أصدقائه الأودّاء الحسن بن وهب، وقد اعتل الحسن فتأخر عنه ابن الزيات أياماً كثيرة ولم يرسل رسوله ولا تعرف خبره، فكتب إليه الحسن يقول: (١)

أيهذا الوزيرُ أيَّدكَ اللهُ   وأبقاكَ لي بقاءً طويلا
أجميلاً تراه يا أكرمَ الناس   لكيما أراه أيضاً جميلا
إنني قد أقمتُ عشراً عليلاً   ما ترى مُرسلاً إليَّ رسولا

فرد عليه ابن الزيات يعتذر عن عدم معرفته بمرضه، ويتلطف به ويتودد إليه، وأنه يكنُّ له الود والإخلاص، ويلتمس منه العفو والصفح والتسامح، فهو خليله المخلص، وصفيه الودود: (٢)

دفعَ اللهُ عنكَ نائبةَ الدهْـ   ـرِ وحاشاكَ أن تكونَ عليلا
أشْهدُ اللهَ ما عَلِمْتُ وماذا   كَ من العذرِ جائزاً مقبولا
وَلَعَمْري أنْ لو علمتُ فلازمْـ   ـتُكَ حولاً لكانَ عندي قليلا

ويرجو أن يجود عليه بالصفح، صفح الخليل خليله:

فاجْعَلَنْ لي إلى التَّعلُّقِ بالعُذْ   رِ سبيلاً إنْ لم أجدْ لي سبيلا
فقديماً ما جاد بالصفحِ والعفـ   ـوِ وما سامح الخليلُ الخليلا

ولابن الزيات ثلاث قطع أخر في معاتبة الحسن بن وهب ومداعبته(٣)، وكما كان يراسل ويداعب الحسن بن وهب، فكذلك كان يراسل عبد الله بن طاهر، ويعتذر إليه عن تقصيره، فقد كتب عبد الله بن طاهر يعاتبه على رسالة فيها (وأمتع بك)، وأول الأبيات: (٤)

---

(١) الأغاني ٢٣ / ٧٠.
(٢) الأغاني ٢٣ / ٧٠، والديوان ق ١٢٢.
(٣) الديوان ق ٣٩، ٤٧، ٦٢.
(٤) ابن قتيبة: أدب الكاتب ١ / ٥١.

أحلت عما عهدتَ من أدبك أم نلتَ مُلْكاً فتهتَ في كتبك
أم قد ترى أنَّ في مناصفة الإخـ ـوانِ نقصاً عليك في حسبك
إنْ جفاني كتابُ ذي ثقةٍ يكون في صدره (وأمتع بك)

فأجابه ابن الزيات مادحاً ومعتذراً بأسلوب المحب المتودد:(١)

وكيف بي أنْ أحولَ يا أملي وكلَّ خيرٍ أنالُ من سببكْ
أنكرْتَ شيئاً فلسْتُ فاعلَهُ ولا تراهُ يُخَطُّ في كُتُبكْ
إنْ كان جَهْلٌ أتاكَ من قِبَلي فعُدْ بفَضْلٍ عليَّ من أدَبكْ
واعفُ فدتكَ النفوسُ عن رجُلٍ يعيشُ حتى الممات في حَسَبكْ

وكذلك كانت بين ابن الزيات وبين راشد الكاتب (أبي حكيمة)، مودة ومباسطة، فلما حج ابن الزيات في آخر أيام المأمون، تأخر راشد عن زيارته، ثم كتب إليه يعتذر ويذكّره بنصيبه من الهدايا، وذلك في قوله:(٢)

لا تنسَ عهدي ولا مودتيهْ واشتقْ إلى طلعتي ورؤيتيهْ
إنْ غِبْتُ عنكم فلا تغِبْ كثر ة الذكرِ ولا تغفَلَنْ هديتيهْ

فأجابه ابن الزيات بقصيدة يذكر فيها مكانته في قلبه، ومنزلة أصحابه في نفسه، وأنه لم ينسه ولم ينسَ أن يدعو له في بيت الله، وأنْ يبره ويؤثره بهداياه، ومن ذلك قوله:(٣)

إنَّكَ منِّي بحيثُ يطَّردُ النا ظِرُ من تحت ماءِ دَمْعَتِيَهْ
ولا ومن زادني وفضَّلني على صحابي بفضلِ صُحْبتِيَهْ
بأبي أنت ما نسيتُكَ في يو مِ دُعائي ولا هديَّتِيَهْ

(١) الديوان ق ١١٣.
(٢) ابن المعتز: الطبقات ص ١٨٤.
(٣) الديوان ق ١٧٣.

ناجيتُ بالذكرِ والدعاءِ لك اللـ ـهَ لدى البيتِ رافعاً يديَهْ

وشعره في الإخوانيات والمعاتبات كثير، وكله على هذا النمط من المباسطة والتودد، والعتاب والاعتذار، وبأسلوب سهل عفوي لا تكلف فيه، ولكن المشكلة في هذا الضرب من الشعر أنه يتداخل شعر الإخوانيات بشعر الغزل بالمذكر، فقد يكون المقصود غلاماً ممن يحبهم فيداعبه ويعاتبه، ويصبر على غضبه، وقد يكون في أحد أصدقائه الوجهاء وأعلام العصر، وخير دليل على هذا، قوله الذي فيه عتاب وغزل:(١)

يا مَنْ يُمازِحُني في الهزلِ بالغَضَبِ فرِّقْ فديتُكَ بين الجدِّ واللعبِ

إذا اصطلحنا منحنا بالصُّدودِ فما تنفك من غضبٍ يُفْضي إلى غضبِ

٧ ــ الحكمة ورثاء النفس:

إن التأمل في الحياة ومصائر الخلق، وتقلبات الزمان ونكبات الدهور، لا تتاح للإنسان إلا بعد أن يبلغ مبلغ النضج، ويجاوز سن الشباب والكهولة، ويكون في سن الشيوخ المفكرين والمسنين المتأملين، الذين عركتهم الحياة وذاقوا حلوها ومرَّها، وعرفوا الناس وخبروهم، أو أن تنزل بهم مصيبة من مصائب الزمان ويقعوا في محنة من المحن فيذوقوا عذابها ويتمنوا الخلاص والفرج القريب، أو الاستسلام للمقدور، وكل هذا قد شهده ابن الزيات، فذاق حلاوة الحياة وبهجتها وروعة سلطانها، وقاسى مرارة المحنة والعذاب القاسي الشديد الذي أودى بحياته، فصدرت عنه حِكَم هي خلاصة خبرته في الحياة الحافلة بالنعيم والبؤس، وصوَّر شعره ما نزل به من عذاب، فبكى حظه، وناح على نفسه، ووصف ما يقاسيه من آلام شديدة، وعزا كلَّ ذلك لحكْم الأقدار وأفاعيل الزمان، فالحكمة في شعر ابن الزيات مقرونة بمحنته ونكبته، ولا يعني هذا أنه لم تسقط في شعره حكم تأتي في تضاعيف الموضوعات الأخرى كالغزل والمديح والرثاء، ولكن جل ما في شعره من حكم، كان مرتبطاً بنكبته، وأنشده حين بكى على نفسه وتحسر على ما فرط من حياته.

ومن حكمه التي قالها وهو يتأمل حال الناس الذين تغرهم الدنيا، فيطغون ويبغون،

---

(١) الديوان ق ١٨.

ثم تدور عليهم الدوائر، ويتغير بهم الزمان، فيلقون مصائر السوء، قوله: (١)

نـزلَـتْ بالخـائـنـينَ سَنَـة   سَنَـةٌ للنـاسِ مُمْتَحِنَـهْ
خَوَّلَتْ ذا النصحِ نِعْمَتَهُ   وأزلَّـتْ نعـمـةَ الخَوَنَـهْ
فترى أهـلَ العفـافِ بهـا   وهُـمُ فـي حالـةٍ حَسَنَـهْ
وترى مَنْ خـانَ همَّتُـهُ   أنْ يؤدِّي كلَّ ما احتجَنَـهْ

ويتأمل في الحياة ومصير الإنسان، والإنسان بطبعه يحب الحياة، ويأمل فيها آمالاً عريضة، ولكن الموت له بالمرصاد، ولا بد أن يطوي الموت هذه الآمال: (٢)

وللنفوسِ وإنْ كانتْ على وجَلٍ   مِـنَ المنيَّـةِ آمـالٌ تُقَـوِّيـهـا
والمرءُ يَبْسُطُها والنَّعْشُ ينشُرُهـا   والدَّهْرُ يقبُضُها والموتُ يطْويها

ويرى ابن الزيات في الصبر فرجاً من كل مكروه، وتغلباً على مصاعب الحياة، ونكبات الدهر، وفي الصبر جلاء للهموم وشفاء للنفس، وإذا خشي الإنسان شيئاً فليجعل الصبر جنة لما يخاف، فالصبر مفتاح الظفر: (٣)

إنَّ في الصبرِ لخيراً فاصطبرْ   واستعـذْ بالله من سوءِ القَدَرْ
اجـعـلِ الصبـرَ لمـا تحْذَرُهُ   جُنَّـةً فالصبرُ مفتـاحُ الظَّفَرْ
كلُّ من حُدِّثْتَ عنـهُ إنَّـهُ   نال خيراً فاعلمـنْ أنْ قد صَبَرْ
إنَّ في الصبرِ مُجيراً لك مِـن   صولـةِ الهَـمِّ إذا الهَـمُّ حَضَـرْ

وحين نزلت بابن الزيات المحنة، كان يستدعي الصبر تارة، ويجزع تارة أخرى، فقد طال عليه العذاب وأطبقت عليه الهموم، وإذا كان لا يستطيع الصبر، ولا يتحمل العذاب، فإنه يدعو ابنته أن تصبر، وتقل بكاءها إذا ما جاءها نعي أبيها، الذي طال

---

(١) الديوان ق ١٦٩ .
(٢) الديوان ق ١٧٥ .
(٣) الديوان ق ٦٩ .

عليه العذاب ويئس من النجاة، وها هو يصف حاله: (١)

لَعبَ البِلَى بمعـــالي ورسُومِي ... ودُفِنْتُ حـــيّاً تحتَ رَدْمِ غُمـــومِ
وشكوتُ غَمّي حين ضِقْتُ ومَن شكا ... كَرْباً يضــيقُ به فــغــيــرُ مَلومِ
لزِمَ البِلى جِســمي وأوهنَ قـوّتي ... إنَّ الـــبِلـــى لَمُوكَّلٌ بــلــزومِ
أُبُنَيَّتي قِلّي بُكاكِ واصـــبـــري ... فــإذا سـمِعْتِ بهـالكٍ مَغـمـومِ
فــانْعي أباكِ إلى نســائه واقْعُدي ... في مـأتَمٍ يبْكي العـيـونَ وقـومي
قـــولي له يا غــائبــاً لا تُرْتجى ... حـتى القـيـامـة مُخْبِراً بقـدومي
يا عين كنتِ ومــا أُكَلِّفُكِ البُكا ... حتى ابتُليتِ فإنْ صبرتِ فدومي

وكان عند حبسه وعذابه يخاطب المتوكل، أو من أنزل به العذاب، ويصور حال القاتل والمقتول متنبهاً ذلك بعصفورة في يد طفل يلهو بها وهي تتعذب: (٢)

تمكَّنتَ من نفسي فأزمَعْتَ قَتْلَها ... وأنتَ رخيُّ البالِ والنفسُ تذهبُ
كعُصفورةٍ في كـفِّ طفْلٍ يسومُها ... ورودَ حياضِ الموتِ والطفلُ يلعبُ
فلا الطفـلُ يدري مـا يسومُ بكفِّـــه ... وفــي كـفِّـه عُصفـورةٌ تتضـرَّبُ

وكان في عذابه يرى تغير الزمان وتقلب الدنيا، فإذا خيرُها يصير شرّاً، وإذا عامرها يكون خراباً، وينتهي إلى نتيجة حتمية إلى أن كل شيء في هذه الحياة مصيره الزوال، وزواله سريع، فالدنيا كظل زائل وليس له إلا أن يرضى بمصيره، فإن الله سبحانه قدَّر كل شيء، وهو راض بقدره: (٣)

سَلْ ديارَ الحيِّ مَن غـيَّرها ... وعفاهـا وعَفَى منظرَهــا
وكذا الدنيا إذا مـا انقلَبَتْ ... جعلَتْ معروفَهـا مُنْكرَهـا

---

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص٥٣٣، والديوان ق١٤٣.
(٢) معجم الشعراء ص٣٦٦، أمراء البيان ص٣٠٦، والديوان ق٦.
(٣) بهجة المجالس ٣/٢٩٧، وفيات الأعيان ٥/١٠١، والديوان ق٧٣.

إنمـا الدنيـا كظلٍّ زائـلٍ أحْمَدُ اللـهَ كـذا قدَّرهـا

وهو في تأمله في هذه الحياة وتقلبها، ينتهي إلى أن كل شيء في هذه الحياة متغير ويصير إلى زوال، وأهل هذه الدنيا بين صعود ونزول، وأن السلطان ينتقل من يد إلى أخرى، وليس هناك دوام ولا بقاء، ومصير الجميع إلى الموت، فمهما بغى الإنسان وطغى، فالموت له بالمرصاد، يحوم حوله أيما حوم: (١)

هو السبيلُ فمن يومٍ إلى يومِ كأنَّهُ ما تُريكَ العينُ في النومِ
لا تعجلنَّ رويداً إنها دولٌ دُنيا تَنَقَّلُ من قومٍ إلى قومِ
إنَّ المنايا وأنْ أصبحتَ في شُغُلٍ تحومُ حولكَ أيَّما حومِ

ويبدو أن آخر ما قاله ابن الزيات في تصوير عذابه، أنه كان يتمنى أن يسعد بلحظات من النوم ـ فقد كان يُعَذَّب بالسهر ويمنع من النوم بالإضافة إلى التنور والجلد ـ فقد وُجِد مكتوباً بالفحم في جانب التنور: (٢)

مَنْ لهُ عَهْدٌ بنومٍ يُرشِدُ الصبَّ إليه
رحمَ اللهُ رحيماً دَلَّ عينيَّ عليهِ
سَهِرَتْ عيني ونامَت عينُ مَنْ هُنتُ عليهِ

وهكذا فإن حكَمَ ابن الزيات جاءت ممزوجة بالبكاء على نفسه، وما لقيه من البؤس والعذاب حتى كانت نهايته، تلك النهاية الأليمة المفزعة.

---

(١) الديوان ق١٤١.
(٢) تاريخ بغداد ٣/١٤٦، الخزانة ١/٤٥١، الديوان ق١٧٤.

نثر ابن الزيات

إن المصادر التي ذكرت ابن الزيات وترجمت له، تذكره بأنه كاتب بليغ، وأديب مجيد موهوب، نال وظيفته كاتباً في ديوان الخلافة بجدارة، بما أوتي من علم بالعربية وتاريخها ونحوها، وما له من ثقافة واسعة، وسرعة بديهة، كل ذلك أهَّلَهُ ليكون كاتباً، فرئيس كتَّاب، فوزيراً قديراً، وكان ابن الزيات يكتب للخليفة في التولية والتعزية والتهنئة ومراسلة الولاة والعمال، وفي أمور الدولة عامة، وكذلك كان يكتب لأصدقائه في أموره الخاصة، وقد شغل ابن الزيات منصبه كاتباً ووزيراً حوالي عشرين عاماً، ولابد أن تكون قد صدرت بخطه أو بإملائه مئات الرسائل، فأين هي تلك الرسائل، وما مستواها الفني؟ يذكر ابن النديم أن لابن الزيات (ديوان رسائل من أربعين ورقة)[1] ، ولم تصل هذه الرسائل، وقد حفظت الكُتُبُ بعضَ الرسائل في بضع صفحات لا تتناسب مع تراث ابن الزيات، والفترة الطويلة التي قضاها كاتباً ووزيراً، ونستطيع أن نعزو فَقْد تلك الرسائل أو طمسها وإتلافها، إلي عوامل عدة، منها : أن ابن الزيات كان من المعتزلة الجهمية، وفي خلافة المتوكل أفل نجم المعتزلة، وأمر المتوكل بالكفِّ عن مساءلة الناس ومحاكمتهم في قضية القول بخلق القرآن، ونشط الأشعرية، ووصلوا إلى الحكم، وكان من الطبيعي ألا يحافظوا على كتابات المعتزلة ومن والاهم، إنْ لم يعملوا على إتلافها، والأمر الآخر أن ابن الزيات قد انتهت حياته مغضوباً عليه من قبل المتوكل، أي من قبل السلطة وأعوان السلطة، وأنه كان في عهد وزارته كثير الخصوم الناقمين عليه والحساد والمتضررين من سياسته وشدته، كل هذه الأمور ساعدت على ضياع رسائل ابن الزيات، وكذلك ضياع قسم كبير من شعره، ولكن ما بقي من أدبه شعراً ونثراً، يعطي صورةً لأدبه وموقعه بين أدب معاصريه، فما هي الخصائص والسمات العامة لنثر ابن الزيات؟.

تتضح في أسلوب ابن الزيات معالمَ أساليب العصر ومؤثراته، وقد كان كبار

---

(١) الفهرست ص ١٧٧، ط ليبسك .

كُتّاب هذا العصر من أمثال الجاحظ وإبراهيم بن العباس الصولي والحسن بن سهل والفضل بن سهل والحسن بن وهب وسليمان بن وهب، وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم والواثق والمتوكل، كل أولئك قد تأثروا بأفكار المعتزلة والمنطق اليوناني، وما تركته حركة الترجمة والنقل من اليونانية والفارسية من آثار في أساليب الكتاب وثقافتهم، وكان قد سبق هذا الجيل من الكُتّاب، جيل آخر كان له أثره في تطور الكتابة ونضجها، مثل ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب، وقد تطور النثر في عصر ابن الزيات تطوراً ملموساً، وخاصة ما كان متصلاً بالرسائل الديوانية، والرسائل الأدبية، التي مثلت ثقافة العصر وعبرت عن حاجاته، فظهرت فيها الآثار الفلسفية، والمصطلحات التي استجدت نتيجة للترجمة والعناية بالعلوم الطبيعية والفلكية والكيماوية والرياضية وغيرها، بالإضافة إلى العلوم العربية والشرعية التي نضجت واكتملت، وقد ظهر في هذا العصر أسلوب جديد متميز يتسم بقوة التعبير، والوضوح، وسهولة الألفاظ، وجمال العبارة، فقد هجروا الألفاظ الغامضة والمعاني المبهمة، وحرصوا على الأداء البليغ الذي يروق المتكلم والكاتب، والمترجم والسامع، بعذوبة منطقه، وهو «أسلوب قام على هجر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافية، التي تنبو على ذوق أهل الحاضرة، كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته، والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة في الجرس الصوتي، وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب، إذ اتخذ لنفسه أصولا بيانية تشيع فيه الرونق والجمال»(١).

وقد ظهر في أسلوب العصر الميل إلى استخدام الفِقَر القصيرة، التي تتميز بالجمل المعبرة، والألفاظ الموسيقية الموحية، وكثر في أساليبهم الترادف والازدواج، وكذلك كان أسلوب ابن الزيات، فيه فقر قصيرة وألفاظ قوية، وجمل رصينة جميلة موحية، يغلب على أسلوبه طابع الجد والقوة والحزم، مع الوضوح والإيجاز، ولا يميل إلى الإطالة والإطناب، إلا في بعض الرسائل التي يستدعي موضوعها ذلك، فيميل عندئذ إلى التكرار والمبالغة.

---

(١) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول ص٤٤٣.

وإذا أردنا أن نجمل خصائص نثر ابن الزيات، مقروناً بالشواهد، نقول. إنه يتميز بأمور أظهرها:

١- الإيجاز: ويتضح هذا في قوله مبينا علاقة الحاكم بالمحكوم، وما يتوجب على الناس من الطاعة للخليفة، وواجب الخليفة في بسط العدل وإحياء السُّنَّة، يقول:

(إن الله أوجب لخلفائه على عباده حقّ الطاعة والنصيحة، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة، وإحياء السنن الصالحة، فإذا أدى كلٌّ إلى كلٍّ حقَّه، كان ذلك سبباً لتمام المعونة، واتصال الزيادة، واتساق الكلمة، ودوام الألفة)[١].

والإيجاز هو السمة الغالبة على أسلوبه، ولكنه قد يطيل ويطنب حين يقتضي الأمر ذلك في المهام الكبيرة، والأحداث الجسام، من مثل حادثة قبض الإخشيد على بابك الخرمي سنة ٢٢٣هـ، فنرى في الرسالة تطويلاً وإطناباً، وتكراراً للعبارات والكلمات التي تؤدي معاني متشابهة أو متقاربة، وكلمات مترادفة، يقول:

(فأما اللعين بابك وكفرته، فإنهم كانوا يُغْزَون أكثر مما يَغْزون، وينالون أكثر مما يُنال منهم، ومنهم المنحرفون عن الموادعة، المتوحشون عن المراسلة، ومن أديلوا من تتابع الدول، ولم يخافوا عاقبة تدركهم، ولا دائرة تدور عليهم، وكان مما وطأ ذلك ومكَّنه لهم، أنهم قوم ابتدؤوا أمرهم على حال تشاغل السلطان، وتتابع الفتن، واضطراب من الحِيَل، فاستقبلوا أمرهم بغرة من أنفسهم وضعف، واستشارة ممن باراهم، فأجلَوْا مَن حولهم، لتخلص البلاد لهم، ثم أخربوا البلاد ليعز مطلبهم، وتشتد المؤونة، وتعظم الكلفة)[٢].

٢ ــ البساطة والوضوح: وهي صفة غالبة في أسلوبه، إذ يتجنب التكلف، والعبارات المعقدة، ويؤثر البساطة والدقة والقوة، ويجعل أفكاره تنساق متسلسلة تسلسلاً منطقياً وطبيعياً، يتضح ذلك في رسالته إلى أحد الموظفين أو الولاة:

(أما بعد، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره، ولا يخلو من إحدى منزلتين،

---

(١) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ ط لجنة التأليف، القاهرة ١٩٦٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٦ / ٤٠٠، ط دار النشر القومية، القاهرة ١٩٦٤

ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة، ولا يريل لائمة، إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم، والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد، ومداهنة لأهل الريب، وأية هاتين كانت منك محلة للنكر بك، وموجبة العقوبة عليك)[1].

٣ ــ قلة السجع: وعلى الرغم مما كان شائعاً في العصر من استعمال السجع، واستفحال السجع في العصر اللاحق، فإن أسلوب ابن الزيات يكاد يخلو من السجع، كما يتضح من الأمثلة السابقة ، وفي أكثر رسائله، وقد يرد السجع في بعض نثره قليلاً، ويأتي عفو الخاطر، دون قصد أو تكلف، فمن السجع القليل الذي سقط في بعض نثره قوله:

(إن من حقّ الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم، وتقويم أودهم، ورياضة أخلاقهم، وأن يميز فيقدم محسنهم، ويؤخر مسيئهم، ليزداد هؤلاء في إحسانهم، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم)[2].

٤ ــ الميل إلى الازدواج والترادف: وقد ظهرت هذه الميزة في أسلوب عصره، وظهرت في أسلوب ابن الزيات، ويضفي الازدواج على الأسلوب الموسيقى والتوازن وتعادل الكلمات، والانسجام بين الحروف، ويكون لكل ذلك وقع جميل معبر وموح، ونجد ذلك واضحاً في قوله:

(الحمد لله الذي جعل أمير المؤمنين معقود النية بطاعته، منطوي القلب على مناصحته، مشحوذ السيف على عدوه، ثم وهب له الظفر، ودوخ له البلاد، وشرد به العدو، وخصه بشرف الفتوح، شرقاً وغرباً، وبراً وبحراً)[3]. وكذلك في قوله:

(إن من أعظم الحقّ حقّ الدين، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين، فحقيق لمن رعى ذلك الحق، وحفظ تلك الحرمة، أن يراعي له حسب ما راعاه الله ، ويحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه)[4].

---

(١) العقد الفريد ٤ / ٢٤١ .
(٢) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .
(٣) السابق والصفحة .
(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .

٥ ــ مراعاة مقتضى الحال: فابن الزيات حين يكتب إلى الولاة على لسان الخليفة، يتضح في أسلوبه الحزم والقوة والإيجاز، وحين يكتب إلى أصدقائه يظهر اللين والتبسط ودماثة الخلق، وحين يكتب في أمور الحرب، وما يلم بالأمة من أحداث وفتن، يطيل ويطنب، ويشتد في موضع الشدة، ويلين في موضع اللين، وحين يكتب في أمور الخلافة وواجب الرعية في الطاعة، تظهر الصبغة الدينية، ويؤكد الواجبات الشرعية، وحين يتعلق الأمر بذكر المقدسات الإسلامية، تظهر ثقافته التاريخية والدينية، في سياق الحث على الحفاظ على المقدسات، وتعظيم المواضع الإسلامية، وذلك ما ظهر واضحا في الكتاب الذي كتبه بحضور المعتصم الذي عهد فيه للواثق على مكَّة، وقد جاء فيه:

(أما بعد، فإن أمير المؤمنين قد قلَّدكَ مكة وزمزم، تُراثَ أبيك الأقدم، وجدِّك الأكرم، ورَكْضَة جبريل، وسُقْيا إسماعيل، وحَفْرَ عبد المطلب، وسِقاية العباس، فعليك بتقوى الله، والتوسعة على أهل بيته)[١].

وقد ذكر ابن الزيات في هذا العهد الموجز جملة قضايا تاريخية وإسلامية، من ذلك قصة هاجر وإبراهيم حين ولدت ابنها إسماعيل، وغارت منها زوجته الثانية سارة، فاضطرته أن يُنْزِل هاجر وابنها منزلاً بعيداً عنها في مكَّة، وكيف أن جبريل هبط ليفجر لهما الماء من بئر زمزم، فتستقي منه هاجرُ وابنُها، وبعد مرور أزمان تنطمر البئر وتمحى معالمها، فيحفرها عبد المطلب جد الرسول، ويتخذها لسقاية الحاج، وأهل الحرم، ويرث هذه المكرمة ابنه أبو طالب فتكون السقاية له من بعد أبيه، ثم ورثها أخوه العباس، وهو جد العباسيين، ومنهم المعتصم والواثق، وهكذا كان ذلك العهد الذي نال إعجاب المعتصم ومن حضر كتابته، لما فيه من مراعاة مقتضى الحال، فقد قيل إن المعتصم سأل محمد بن رباح: كيف ترى؟ قال:

كأنهما قرطان بينهما وجه حسن، ومع ذلك ذكر ابن الزيات أمر الحرم بتعظيم وتفخيم[٢].

---

(١) زهر الآداب ٤/١٠٩٧.

(٢) زهر الآداب ٤/١٠٩٧.

النصوص النثرية

إن ما بقي من نثر ابن الزيات مجموعة قليلة من الرسائل، منها الرسائل الرسمية التي كتبها في زمن وزارته للمعتصم أو الواثق أو المتوكل، ومنها رسائل عامة أو شخصية وجهها إلى أصدقائه أو أجاب من كتب إليه، ونحاول أن نصنف هذه الرسائل وفق أزمان كتابتها على وجه التقريب:

أولاً: الرسائل الصادرة عن ديوان الخلافة:

١ــ عهد للواثق على مكة كتبه بحضرة المعتصم:

(أما بعد، فإن أمير المؤمنين قد قلدك مكة وزمزم، تراثَ أبيك الأقدم، وجدِّك الأكرم، وركْضَة جبريل، وسُقيا إسماعيل، وحَفْر عبد المطلب، وسِقايَةَ العباس، فعليك بتقوى الله تعالى، والتوسعة على أهل بيته)[1].

٢ ــ القبض على بابك الخرمي سنة ٢٢٣هـ، قال بعد التحميد:

(ولا يعلم أمير المؤمنين ــ مع كثرة أعداء الإسلام، وتكنفهم إياه من أقطاره، والضغائن التي في قلوبهم على أهله، وما يترصدونه من العداوة، وما ينطوون عليه من المكايدة، إذ كان هو الظاهر عليهم، والآخذ منهم ــ عدواً كان أعظم بلية، ولا أجلَّ خطباً، ولا أشدَّ كَلَباً ولا أبلغ مكايدة، ولا أرمى بمكروه، من هؤلاء الكفرة الذين يغزوهم المسلمون، فيستعلون عليهم، ويضعون أيديهم حيث شاؤوا منهم، ولا يقبلون لهم صلحاً، ولا يميلون معهم إلى موادعة، وإن كان لهم على طول الأيام، وتصرف الحالات، وبعض ما لا يزال يكون من فترات ولاة الثغور، أدنى دولة من دولات الظفر، وخُلسة من خُلَسِ الحرب، كان بما لهم من خوف العاقبة في ذلك منغصاً لما تعجلوا من سروره، وما يتوقعون من الدوائر، يعد مكدراً لما وصل إليهم من فرحة.

---

(١) زهر الآداب ص ١٠٢٦ وفيه إضافة (ولو لم يكن من فضل الشكر إلا أنك لا تراه إلا بين نعمة مقصورة عليه، وزيادة منتظرة له)، وانظر أمراء البيان ص ٢٩٧ــ٢٩٨.

فأما اللعين بابك وكَـفَرته، فإنهم كانوا يَغزون أكثر مما يُغزَون، وينالون أكثر مما يُنالُ منهم، ومنهم المنحرفون عن الموادعة، المتوحشون عن المراسلة، وممن أديلوا[١] من تتابع الدول، ولم يخافوا عاقبة تدركهم، ولا دائرة تدور عليهم، وكان مما وطّأ ذلك ومكّنه لهم، أنهم قومٌ ابتدؤوا أمرهم على حال تشاغل السلطان، وتتابع من الفتن، واضطراب من الحيل، فاستقبلوا أمرهم بغرة من أنفسهم وضعف، واستثارة ممن باراهم، فأجلَوْا من حولهم لتخلص البلاد لهم، ثم أخربوا البلاد ليعز مطلبهم، وتشتد المؤونة، وتعظم الكلفة، ويقْوَوا في ذات أيديهم، فلم يتوافَ إليهم قواد السلطان، إلا وقد توافتْ إليهم القوة من كل جانب، فاستفحل أمرُهم، وعظمت شوكتهم، واشتدت ضراوتهم، واستجمع لهم كيدهم، وكثر عددهم واعتدادهم، وتمكنت الهيبة في صدور الناس منهم، وتحقق في نفوسهم أنَّ كلَّ ما يَعِدهم الكافرُ ويُمَنِّيهم أخذٌ باليد، وكان الذي بقي عندهم منه كالذي مضى، وبدون هذا ما يُختَدَع الأريبُ، ويستنزل العاقل، ويُعْتَلُ الفَطِنُ، فكيف بمن لا فكرة له، ولا روية عنده.

هذا مع كل ما يقوم في قلوبهم من حسد أهلِ النِّعَم، ومنافستهم على ما في أيديهم، وأقطعهم حسراتٍ في إثْرِ ما خُصُّوا بهِ، وأنهم إنْ لا يكونوا يرون أنفسهم أحق بذلك، فإنهم يرون أنهم فيه سواء.

وفيه: فأعدَّ أمير المؤمنين من أمواله أخطرها، ومن قواد جيشه أعلمهم بالحرب، وأنهضهم بالمعضلات، ومن أوليائه وأبناء دعوته ودعوة آبائه ـ صلوات الله عليهم ـ أحسنهم طاعة، وأشدهم نكاية، وأكثرهم عُدَّة، ثم أتبع الأموال بالأموال، والرجال بالرجال، من خاصة مواليه، وعدد غلمانه، وقبل ذلك ما اتكل عليه من صُنع الله عزَّ وجل، ووجه إليه من رِعيته، فكيف رأى الكافر اللعين وأصحابه الملاعين؟ ألم يُكَذِّب الله ظنونهم، ويَشْفِ صدورَ أوليائه منهم؟ يقتلونهم كيف شاؤوا، في كل موطنٍ ومعترك، مادامت عند أنفسم مقاومة.

وفيه: فلما حصرهم الله، وحبسهم عليه، ودانتهم مصارعهم، سلطهم الله عليهم

---

(١) أديلوا: من الدولة، والإدالة: الغلبة، أدالنا الله من عدونا: مكننا منه.

كيدٍ واحدة، يختطفونهم بسيوفهم، وينتظمونهم برماحهم، فلا يجدون ملجأً ولا مهرباً، ثم أمكنهم من أهاليهم وأولادهم ونسائهم وحُرَمهم، وصيَّروا الدارَ دارَهم، والمحلَّةَ مَحلَّتَهم، والأموال قَسْماً بينهم، والأهلَ إماءً وعبيداً، وفوق ذلك كله ما فعل بهؤلاء، وأعطاهم من الرحمة والثواب، وما أعدَّ لأولئك من الخزي والعقاب، وصار الكافر بابك لا فيمن قُتِل فسلم من ذل الغَلَبة، ولا فيمن نجا فعاين في الحياة بعض العوض، ولا فيمن أصيب، فيشتغل بنفسه عن المصيبة بما سواه).

وجاء في خاتمته: (فالحمد لله الذي أعزَّ دينه، وأظهر حُجَّتهُ، ونصر أولياءه، وأهلك أعداءه، حمداً يُقْضى به الحقّ، وتتم به النعمة، وتتصل به الزيادة، والحمد لله الذي فتح على أمير المؤمنين وحقق ظنَّه، وأنجح سعيه، وحاز له أجر هذا الفتح وذُخْره وشرفه، وجعله خالصاً لتمامه وكماله، بأكمل الصنع وأحسن الكفاية)[1].

٣ ــ وكتب في حقِّ السلطان وحقِّ الرعية:

(إنَّ حقّ الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم، وتقويم أودهم، ورياضة أخلاقهم، وأنْ يميِّزَ بينهم فيقدم محسنَهم، ويؤخِّر مسيئَهم ، ليزداد هؤلاء في إحسانهم، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم)[2].

٤ ــ وكتب في حرمة المسلمين:

(إن من أعظم الحقّ حقّ الدِّين، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين، فحقيق لمن راعى ذلك الحقّ، وحفظ تلك الحرمة، أن يراعي له حسب ما راعاه الله، ويحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه)[3].

٥ ــ وكتب في علاقة الخليفة بالرعية:

(إن الله أوجب لخلفائه على عباده حقّ الطاعة والنصيحة، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة، وإحياء السنن الصالحة، فإذا أدَّى كلٌّ إلى كلٍّ حقَّه، كان ذلك

---

(١) صبح الأعشى ٦ / ٤٠٠ .
(٢) العقد الفريد ٣ / ٢١٣ .
(٣) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .

سبباً لتمام المعونة، واتصال الزيادة، واتساق الكلمة، ودوام الألفة)[1].

٦ ــ وكتب في إسباغ النعم:

(ليس من نعمة يجددها الله لأمير المؤمنين في نفسه خاصة، إلا اتصلت برعيته عامّة، وشملت المسلمين كافّة، وعظم بلاء الله عندهم فيها، ووجب عليهم شكره عليها، لأن الله جعل بنعمته تمام نعمتهم، وبتدبيره وذبِّه عن دينه حفظ حريمهم، وبحياطته حقن دمائهم وأمن سبيلهم، فأطال الله بقاءَ أمير المؤمنين منطوي القلب على مناصحته، مؤيَّداً بالنصر، معززاً بالتمكين، موصول البقاء بالنعيم المقيم)[2].

٧ ــ وكتب في أفعال أمير المؤمنين:

(أفعال أمير المؤمنين عندنا معسولة كالأماني، متصلة كالأيام، ونحن نواتر الشكر لكريم فعله، ونواصل الدعاء له مواصلة برِّه: إنه الناهض بكَلِّنا، والحامل لأعبائنا، والقائم بما ناب من حقوقنا)[3].

٨ ــ وكتب في الخليفة وطاعة الله:

(الحمد لله الذي جعل أمير المؤمنين معقود النية بطاعته، منطوي القلب على مناصحته، مستحوذ السيف على عدوه، ثم وهب له الظفر، ودوخ له البلاد، وشرَّد به العدو، وخصه بشرف الفتوح، شرقاً وغرباً، وبراً وبحراً)[4].

٩ ــ وكتب في تنبيه العمال:

(أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره، ولا يخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة، ولا يزيل لائمة : إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم، والتفريط في الواجب، وإمَّا مظاهرة لأهل الفساد، ومداهنة لأهلِ الرِّيَب، وأيَّة هاتين كانت منك مُحلَّةُ النُّكْرِ بك، وموجبةُ العقوبةَ عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِرة، والأخذ بالحُجَّة، والتقدم في

---

(١) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠.
(٢) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .
(٣) العقد الفريد ٤ / ٢٤١.
(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠.

الإعذار والإنذار، على حسب ما أقلت من عظيم العثرة، وما يجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضاعة، والسلام)[1].

١٠ـ أمر الواثق ابن الزيات أن يتلطف بعبد الله بن طاهر، ويعلمه أنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم، وفوَّض ذلك لابن عمه إسحاق بن إبراهيم، فكتب ابن الزيات:

(أما بعد، فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر والعواصم، فيجعله في شمالك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته)[2].

١١ ـ رسالته في البيعة للمتوكل واعتماد اللقب الذي لقب به:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أمرَ أبقاك الله أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابره، وفي كتبه إلى قضاته وكتابه وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم، من سائر من تجري المكاتبة بينه وبينه: «من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين»، فرأيك في العمل بذلك، وإعلامي بوصول كتابي إليك، موفق إن شاء الله)[3].

ثانيا: رسائل عامة كتبها إلى من هم تحت إمرته، أو إلى أصدقائه، أوتوقيعات له:

١٢ ـ رسالة إلى الحسن بن وهب، بين الرئيس والمرؤوس:

(يجب على المرؤوس إذا تجاوز به الرئيس حق مرتبته بعمله، وكان تفضيله إنما وقع له بخفته على القلب، ومحله من الأدب، أن يقابل ذلك بمثله، إن كان محامياً على محله، وإلا فلا يؤمن عليه)[4].

١٣ ـ رد على معاتبة الحسن بن وهب في أمر من الأمور، فكتب إليه:

(يا أخي، ما زُلتُ عن مودتك، ولا حُلْتُ عن أخوتك، ولا استبطأتُ نفسي

---

(١) العقد الفريد ٤ / ٢٤١.
(٢) زهر الآداب ص٢٧٢ و ١٠٢٦.
(٣) تاريخ الطبري ١١ / ٢٦ ـ ٢٧.
(٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار ٣ / ٣١.

لك، ولا استزدتُها في محبتك، وإن شخصك لماثلٌ نُصْبَ طَرفي، ولقلَّ ما يخلو من ذكرِكَ قلبي، ولله درُّ الذي يقول:

أما والذي لو شاء لم يخلق النوى لئن غِبتَ عن عيني لما غِبتَ عن قلبي

يذكرنيك الشوق حتى كأنني أناجيك من قربٍ وإنْ لم تكنْ قربي[1]

١٤ ــ رسالته إلى الجاحظ يستحثه فيها للفراغ من كتاب الردِّ على النصارى والتعجيل به إليه:

(إن أمير المؤمنين يجد بك، ويهش عند ذكرك، ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه، ولغصبك رأيك وتدبيرك، فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه... وتنال مشاهرتك، وقد استطلقته لما مضى، واستسلفته لك، لسنة كاملة مستقبلة)[2].

١٥ــ وقال يرد على رسالة لإبراهيم بن العباس الصولي أيام مقامه بالأهواز:

(قلَّةُ نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة، وإغفالك حظك حطك عن الدرجة، وجهلك بقدر النعمة، أحل بك اليأس والنقمة، حتى صرت من قوة الأمل، معتاضاً شدة الوجل، ومن رجاء الغد متعوضاً يأس الأبد، وركبت مطية المخافة بعد مجلس الأمن والكرامة، وصرت معرضا للرحمة بعد ما اكتنفتك الغبطة، وقد قال الشاعر:

إذا ما بدأتَ امرَأً جاهلاً ببِرٍّ فقَصِّرَ عن حَمْلِهِ

ولم تره قابلاً للجَميلِ ولا عرف الفضلَ مِن أهلِهِ

فسُمْهُ الهوانَ فإن الهوان دواءٌ لذي الجهلِ مِن جهلِهِ

وقد فهمت كتابك، وإغراقك وإطنابك، وإضافة ما أضفت بتزويق الكتاب بالأقلام، وفي كفاية الله غنى عنك يا إبراهيم، وعوض منك، وهو حسبنا ونعم الوكيل)[3].

---

(١) الوشاء: الظرف والظرفاء ص٢٩٤.

(٢) أبو هلال الصابي: تاريخ الوزراء ص٩٧.

(٣) إعتاب الكتاب ص١٤٧ ــ ١٤٨، وانظر الديوان ق١٢٩.

١٦ ــ ومما قاله في صفة القلم:

(خير الأقلام ما استحكم نضجه، وخفَّ بزرُهْ، قد تساعدت عليه السعود في فلك البروج حولاً كاملاً، تؤلفه بمختلف أركانها وطباعها، ومتباين أنواعها وأنحائها، حتى إذا بلغ أشدَّهُ واستوى، وشقت بوازله، ورقَّتْ شمائلُهُ، وابتسم عن غشائه، وتأدَّى من لحائه، وتعرَّى عنه ثوب المصيف بانقضاء الخريف، وكشف لون البيض المكنون، والصدف المخزون، وقطع ولم يعجل عن تمام مصلحته، ولم يؤخر إلى الأوقات المخوفة عاهاتها عليه من خضر الشتاء، وعفن الأنداء، فجاء مستوي الأنابيب معتدلها، مثقف الكعوب مقومها)[١].

١٧ ــ ومن قوله في التحذير من الصديق الجاهل:

(احذروا الصديق الجاهل أكثر من حذركم العدو العاقل، فليس من أساء وهو يعلم أنه مسيء، كمن أساء وهو يظن أنه يحسن)[٢]، ومما يلحق بهذا ما قيل إن ابن الزيات كان يأنس بأهل البلادة والغباء ويستوحش من أهل الذكاء، فسئل عن ذلك فقال: (مؤونة التحفظ شديدة)[٣].

١٨ــ توقيعاته:

ولابن الزيات جملة توقيعات حفظتها الكتب، نورد ما توافر لدينا منها:(*)

١ــ كتب ابن الزيات توقيعاً إلى عبد الله بن طاهر: قطعتُ عنكَ كُتُبي قَطْعَ إجلالٍ لا قَطْعَ إخلالٍ[٤].

٢ــ وقع إلى عامل له: توهمْتُكَ شَهْماً كافياً، فوجدتُكَ رَسْماً عافياً، لا محامياً ولا وافياً[٥].

---

(١) صبح الأعشى ٢ / ٤٥٣.

(٢) تاريخ الوزراء ص ٩٧.

(٣) العقد الفريد ٣ / ٢١٣.

(*) لأخي الدكتور محمد الدروبي مشروع كتاب عن التوقيعات العباسية، وقد زودني بتوقيعات ابن الزيات، فله مني الشكر الموصول.

(٤) تحفة الوزراء ص٩٨.

(٥) البصائر والذخائر ٨ / ٢٦ـ٢٧.

٣ــ وقَّعَ يوماً على رقْعَةِ رجلٍ توسلَ إليه بقُرْبِ الجوارِ منه: الجِوارُ للحيطان، والتعطُّفُ للنسوان[١].

٤ــ كتب محمد بن خالد إلى ابن الزيات: أنَّ قوماً صاروا إليه متنصِّحين، فذكروا أنَّ رسوماً للسلطان قد عَفَتْ ودرستْ، وأنه قد توقف عن كشفها إلى أنْ يعرفَ موقعَ رأيه فيها، فوقع ابن الزيات على رقعته: قرأتُ هذه الرقعة المذمومة، وسوقُ السُّعاة تكسدُ عندنا، وألسنهم تكِلُّ في أيامنا، فاحمِل الناسَ على قانونك، وخُذْهُمْ بما في ديوانك، فلم ترد الناحية لكشف الرسوم العافية، ولا لتحيي الأعلامَ الداثرة، وجنبني وتجنب قول جرير:[٢].

وكنتَ إذا حَلَلْتَ بدارِ قومٍ رحَلْتَ بخِزْيَةٍ وتركتَ عارا

فأجْرِ الأمْرَ على ما يُكسبُنا الدعاء لنا لا علينا، واعلمْ أنَّها مدَّةٌ تنقضي، فإمَّا خزْيٌ طويل، وإمَّا ذِكْرٌ جميلٌ[٣].

٥ــ كان محمد بن المدبر، وأحمد بن إسرائيل، وسليمان بن وهب، في حبس الواثق، فلما توفي الواثق وخلفه المتوكل هربوا، ثم كتبوا إلى محمد بن عبد الملك الزيات، فلما وصلت الرقعة وقع على ظهرها: لمَ استخفيتم؟ وليس منكم إلا من عنايتي تخصه، ورأيي فيه جميل، أمَّا أبو أيوب[٤]، فقد تكلم في حقه أبو منصور إيتاخ[٥] واستوهبه فوهب له، وأمرتُ بإحضاره ليُخلَعَ عليه، فليحضر، وأما أبو جعفر[٦] فإنه طولب بما لا يلزمه، وقد وضحتْ حجته في بطلانه، فليصِرْ إليَّ، وأما أبو

---

(١) وفيات الأعيان ٥/١٠٢.

(٢) ديوان جرير ٢/٨٨٧.

(٣) التذكرة الحمدونية ٣/١٥٥ــ١٥٦، نهاية الأرب ٣/٢٩٠.

(٤) كنية سليمان بن وهب.

(٥) إيتاخ: غلام تركي كان يعمل طباخاً، اشتراه المعتصم وصيَّرهُ قائداً من قواد جيشه، ووكل إليه عدداً من المهمات الجليلة، ولاه اليمن، ثم ولي الحجاز، ودُعي له على المنابر، غضب عليه المتوكل فقتله سنة ٢٣٥ هـ (تاريخ الطبري، وابن الأثير حوادث سنة ٢٣٥هـ).

(٦) أبو جعفر: كنية أحمد بن إسرائيل.

الحسن[1] فإنه قُذف بباطل، فاظهروا جميعاً واثقين بما عندي من حياطتكم ورعايتكم[2].

٦ـ كان أبو تمام حبيب بن أوس لما مدح أبا جعفر محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدته التي أولها:

لهان علينا أن نقولَ وتفعلا ونذكر بعضَ الفضلِ منكَ وتفضلا

وهي أحسن شعره، وقَّع ابن الزيات على ظهرها:

رأيْتُكَ سَمْحَ البيعِ سهلاً وإنَّما يُغالَى إذا ما ضنَّ بالشيءِ بائعُهْ
فأمَّا إذا هانتْ بضائعُ بيعِهِ فيوشكُ أن تبقى عليهِ بضائعُه
هو الماءُ إنْ أجْمَمْتُهُ طابَ وِرْدُهُ ويفسُدُ منه أنْ تُباحَ مشَارِعهْ[3]

٧ـ كتب أبو تمام الطائي رقعةً إلى محمد بن عبد الملك الزيات يسأله فيها مُحالاً، وكتب على عنوانها (حبيب) فأخذه محمد ونَقَطَهُ، فصارتْ (خبيث)[4].

٨ ـ كتب إليه إبراهيم بن العباس الصولي رُقْعَةً يستعطفه فيها بعد أن نكبه، وفي آخرها:[5]

وكنتَ أخي بإخاءِ الزمان فلما نبا صِرْتَ حَرْباً عَوانا
وكنتُ إليكَ أذمُّ الزمـا نَ فأصبحتُ فيكَ أذُمَّ الزمانا
وكنتُ أُعِدُّكَ للنائباتِ فها أنا أطلبُ منكَ الأمانا

فوقع ابن الزيات في آخرها: ارجَعْ مذموماً، لا حاجة بنا إلى أُخوَّتِكَ، ولا صداقَتِكْ، ولا للاستعانةِ بك:

---

(١) أبو الحسن: هو أحمد بن المدبر.
(٢) الفرج بعد الشدة ٢/٢٥٩ ـ ٢٦١.
(٣) زهر الآداب ٢/٣٩٢، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ٤ م١/١٧٦ وانظر الديوان ق ٨٨.
(٤) نثر الدر ٥/٢٦٢.
(٥) الرقعة والأبيات في جمهرة رسائل العرب ٤/٣٩ ـ ٤٠.

إذا ما بدأتَ امرأً جاهلاً ببرٍّ فقصَّرَ عن حَمْلِهِ

ولم تُلْفِهِ قائلاً للجميلِ ولا عارفَ العزِّ من ذُلِّهِ

فسُمْهُ الهَوانَ فإنَّ الهَوانَ دواءٌ لذي الجَهْلِ من جَهْلِهِ

وحسبُكَ ما أخلدتَ إليه ضَعَةً ونَقْصاً، وفي كفايةِ اللهِ غنى عنكَ(١).

٩ـ حُكي عن أحمد بن المدبر أنه قال: كنتُ أكتبُ لمحمد بن عبد الملك الزيات على الجيش، واحتيجَ إلى توجيه بعض القواد في أمر مهم، فعملتُ باستحقاقه ورجاله عملاً مُفَصَّلاً، ثم أجملتُ التفصيلَ، فغلطتُ فيه، وصككتُ به، وحُمِلَ المالُ إلى القائد وقبضهُ وشخصَ، ثم رجعتُ إلى العمل فتتبعته فوقعتُ على الغلط، فاستحييتُ من محمد بن عبد الملك، فجلستُ ثلاثةَ أيام، فوجَّهَ إليَّ فاسْتحضرني، فكتبتُ إليه أصدقُهُ عن القصة، وأعترفُ بالخطأ، وأعلمتُهُ أنَّ الحياءَ منعني من الحضور، وأُحكمهُ على نفسي في العقوبة، فوقَّعَ إليَّ: لا جُرْمَ لكَ فيما لم تتعَمَّدْ، فارجعْ إلى مكانك، وتحَرَّزْ من وقوعِ ما كان منك(٢).

---

(١) إعتاب الكتاب ص١٤٧ ـ ١٤٨، والأبيات في الديوان ق ١٢٩.

(٢) إعتاب الكتاب ص ١٥٧.